الباب الرابع عشر

العصر الفضي

١٤ – ٩٦ م

الفصل الأول

المولعون بالفنون

أطلقت الرواية المتواترة على الآداب اللاتينية فيما بين ١٤ ، ١١٧ م اسم العصر الفضى للدلالة على أن هذه الآداب قد نزلت عن المستوى الثقافى الرفيع الذى بلغته فى عصر أغسطس ؛ والرواية هى صوت الزمان ، والزمان هو الوسط الذى يختار فيه بين الطيب والخبيث ، والعقل الحذر يجل حكمهما لأن الشباب وحده هو الذى يعرف ما لا تعرفه عشرون قرناً من الزمان . على أننا نرجو أن يؤذن لنا بأن نرجئ حكمنا على هذا العصر ، وأن نستمع بلا تحيز إلى ما يقوله عنه لوكان ، وپترونيوس ، وسنكا ، وپلنى الأكبر ، وسلسس Celsus ، واستاتيوس Statius ومارتيال ، وكونتليان ، وأن نستمع فى أبواب أخرى من هذا الكتاب إلى أقوال تاستس ، وچوڤنال ، وپلنى الأصغر ، وإپكتتس Epictetus ، وأن نستمتع بأقوالهم استمتاع من لم يسمعوا قط بأنهم عاشوا فى عصر من عصور الاضمحلال . ذلك أنا نجد فى كل عصر شيئاً يضمحل وشيئاً ينمو ؛ فالمقطوعات الشعرية الفكهة ، والهجاء ، والروايات القصصية ، والتاريخ ، والفلسفة ، بلغت كلها فى العصر الفضى ذروة مجدها ، كما أن فن النحت الواقعى ، والعمارة الضخمة قد بلغا فيه ما لم يبلغاه فى عصر آخر من عصور الفن الرومانى .

obeikandl.com

وفى هذا العصر دخل حديث رجل الشارع مرة أخرى فى الأدب ، وأهملت بعض قواعد النحو والصرف ، وحذفت الحروف الساكنة من أواخر الكلمات ، ولم يعبأ بها الرومان أكثر مما كان يعبأ بها الغاليون . وحدث فى منتصف القرن الأول أو حواليه أن رقق الحرفان اللاتينيان V (وكان ينطق كما ننطق حرف W (و) فى اللغة الإنجليزية) ، B (إذا كان بين حرفين متحركين)(*) حتى أصبحا مماثلين فى النطق لحرف V الإنجليزى . وهكذا أصبحت كلمة babere ومعناها التملك ينطق بها bavere ، وكان هذا تمهيداً للكلمة الإيطالية avere ، وللفرنسية Avoir ؛ وأخذت كلمة vinum ومعناها النبيذ أو الخمر تقترب فى النطق من كلمة vino الإيطالية ، وكلمة vin الفرنسية وذلك بإهمال الحرف الساكن الأخير المتغير . وقصارى القول أن اللغة اللاتينية شرعت تمهد السبيل للغات القومية الأبطالية والأسبانية والفرنسية .

وجدير بنا أن نعترف فى هذا المقام بأن الخطابة ازدهرت وقتئذ على حساب البلاغة ، وأن النحو ارتقى على حساب الشعر ؛ وأن المقتدرين الكفاة وجهوا كل جهودهم إلى دراسة شكل اللغة وتطورها ودقائقها ، وإلى نشر النصوص التى أصبحت فى ذلك العهد نصوصاً « فصحى » ، وإلى صياغة قواعد الكتابة الأدبية الراقية والخطب القضائية ، وأوزان الشعر ، وتقاسيم الجمل فى النثر . وحاول كلوديوس أن يدخل بعض الإصلاح على الحروف الهجائية ، وجعل نيرون الشعر طراز العصر المحبب ، وألف سنكا الأكبر كتباً فى البلاغة ، وحجته فى هذا أن الفصاحة تزيد كل قوة إلى ضعفيها ؛ ولم يكن أحد يرقى فى رومة بغير الفصاحة إلا قواد الجند وخدمهم ، وحتى هؤلاء القواد كان يجب أن يكونوا خطباء . واستحوذ جنون البلاغة على جميع أشكال الأدب : فأصبح الشعر خطابياً والنثر

(*) لقد فضلنا أن نستعمل هذا اللفظ (الحرف المتحرك) لترجمة كلمة vowel الإنجليزية وإن كان بعضهم يفضل تسميته « بالحركة » ، وذلك للدلالة على كيانه المستقل . (المترجم)

شعرياً ، وحتى بلنى نفسه كتب صفحة بليغة فى المجلدات الستة من كتابه فى **التاريخ الطبيعى** . وأخذ الناس يشغلون أنفسهم باتزان عباراتهم ، وتناغم جملهم ، وأضحت التواريخ خطباً حماسية ، وأخذ الفلاسفة يجهدون أنفسهم فى البحث عن النكات ، وشرع كل إنسان يكتب أمثالا مركزة موجزة ، وصار الأدباء كلهم يكتبون الشعر ويقرءونه لأصدقائهم حول مناضد فى ردهات أو دور تمثيل يستأجرونها لهذا الغرض ، بل إنهم كانوا يقرءونه فى الحمامات نفسها ، حتى شكا من ذلك مارتيال مر الشكوى . وعقدت مباريات عامة للشعراء ، ينال الفائزون فيها جوائز وتحتفل بهم المجالس البلدية ، ويضع الأباطرة على رؤوسهم أكاليل النصر . وكان الأشراف والزعماء يرحبون بأن تهدى إليهم المؤلفات أويثنى عليهم فيها وكانوا يجيزون أصحابها بالولائم أو الأموال . وكانت شهوة الشعر مما أكسب هذه الفترة وتلك المدنية اللتين دنستهما الإباحية الجنسية وعهود الإرهاب المتكررة نقول كانت هذه الشهوة مما أكسب هذه الفترة ذلك الجمال الذى يخلعه المؤلفون الهواة على العصر الذى يعيشون فيه .

واجتمع الشعر والإرهاب فى حياة لوكان ، وكان سنكا الكبير جده ، وسنكا الفيلسوف عمه . وقد ولد قرطبة عام ٣٩ وسمى ماركس أنيوس لوكانس Marcus Annaeus Lucanus ، وجىء به فى طفولته إلى رومة ونشأ فى بيئة أرستقراطية يصطرع فيها الشعر والفلسفة مع دسائس الحب ومع السياسة فى سبيل الغلبة والمكانة السامية فى الحياة . ولما بلغ الحادية والعشرين من عمره اشترك فى المباريات التى عقدت أثناء الألعاب النيرونية ، وتقدم إليها بقصيدة « فى مدح نيرون » نال عليها جائزة . وأدخله سنكا فى بلاط الإمبراطور ، وسرعان ما أخذ الشاعر والإمبراطور يتطارحان الملاحم . وارتكب لوكان غلطة شنيعة إذ كسب الجائزة الأولى فى مباراة شعرية مع الزعيم ، فما كان نيرون إلا أن أمره بألا ينشر بعدها شعراً ، وانسحب لوكان ليثأر لنفسه سراً بتأليف ملحمة قوية ولكنها خطابيـــة

سماها فرساليا رأى فيها الحرب الأهلية بعين الأرستقراطية اليمبية . ولم يبخس لوكان فى هذه الملحمة قيصر حقه ، وقد وصفه فيها بتلك العبارة البليغة « nil actum credens cum quid supersset agendum يظن أنه لم يفعل شيئاً إذا ما بقى شىء ما لم يفعله »[١] ، ولكن البطل الحقيقى فى هذه الملحمة هو كاتو الأصغر الذى يضعه لوكان فى مصاف الآلهة فى سطر مشهور من سطور كتابه « victrix causa deis placiut sed victa Catoni إن القضية الرابحة سرت الآلهة ، ولكن القضية الخاسرة سرت كاتو »[٢] . وقد أحب لوكان أيضاً القضية الخاسرة ، ومات فى سبيلها . فقد اشترك فى مؤامرة ليحل بيزو محل نيرون ، وقبض عليه ، فخارت قواه (ولم يكن قد جاوز السادسة والعشرين من عمره) ، وباح بأسماء شركائه فى المؤامرة ، حتى اسم أمه نفسها — على حد قول المؤرخين . ولما أيد نيرون حكم الإعدام الذى صدر عليه ، استعاد شجاعته ، ودعا أصدقاءه إلى وليمة ، وأكل معهم حتى شبع ، ثم فتح بعض أوردته ، وأنشد ما قاله من الشعر فى هجو الظلم والطغيان بينما كان دم الحياة ينزف من جسمه .

الفصل الثانى

پترونيوس

لسنا واثقين من أن پترونيوس الذى لا يزال كتابه المسمى الساتريكون satyricon يجد له كثيراً من القراء هو نفسه. كيوس پترونيوس Caius Petronius الذى قتل بأمر نيرون بعد عام من مقتل لوكان . وليس فى الكتاب كله كلمة واحدة يمكن أن يستدل منها على هويته ؛ ولا يذكر تاستس فى وصفه القوى البليغ لهذا « الحاكم الظريف » كلمة واحدة عن هذه الآية الأدبية التى بلغت الغاية فى سوء السمعة ، وتعزى نحو أربعين مقطوعة فكهة إلى كاتب يدعى پترونيوس ومنها بيت يكاد يمثل فلسفة لكريوشيوس كلها وهو : « إن الخوف هو الذى أوجد الآلهة فى العالم أول الأمر »(٣) ولكن هذه النتف أيضاً لا تذكر شيئاً يفصح عن حقيقة مؤلفها .

وكتاب الساتريكون مجموعة من الهجاء يغلب على الظن أنها كانت فى ستة عشر كتاباً لم يبق منها إلا الكتابان الأخيران ، وحتى هذين الكتابين ناقصان . واسمها مشتق من ساتورى saturae اللاتينية ومعناها « خليط » — وهى تارة نثر وتارة شعر ، وتختلط فيها المغامرات بالفلسفة ، وجراحة المعدة بالصيد . وهى مدينة فى صورتها هذه لكتب منبس Menippus الهجائية ؛ ومنبس هذا فيلسوف سورى كلبى Cynic كان يقيم فى جدارا Gadara وفيها كتب مؤلفة عام ٦٠ ق . م ، ومنها « القصص الميليزية » Milesian أو الروايات الغرامية التى انتشرت فى العالم ذى الحضارة اليونانية . وإذ كان كل ما لدينا من أمثلة لهذا النوع من الكتابات إنما يرجع إلى ما بعد عصر پترونيوس فإن كتاب الساتريكون يمتاز عن أمثاله من الكتب بأنه أقدم رواية قصصية معروفة .

ولا يكاد الإنسان يصدق أن رجلا مترفاً أرستقراطياً نبيلا ، اشتهر بذوقه الراقى ، ينزل إلى الدرك الذى نزل إليه كتاب الساتريكون . إن كل ما فيه من الشخصيات العاملة من العامة ، والأرقاء السابقين ، وكل ما فيه من المناظر مأخوذة من أسفل أنواع الحياة ؛ وبه ينتهى فجاءة العهد الأغسطى الذى كانت تؤخذ فيه موضوعات الأدب من حياة الطبقات العليا. فإنكلپيوس Encolpius الذى تروى القصة على لسانه زان ، مخنث . كاذب لص ، يرى من الطبيعى أن يكون كل ذى عقل على شاكلته . وهو يقول عن نفسه وعن صديقه : « لقد اتفقنا فيما بيننا على أن نختلس كل ما تصل إليه أيدينا كلما أتيحت لنا فرصة الاختلاس ، لنملأ به خزينتنا المشتركة »(٤) . وتبدأ القصة فى بيت للدعارة ، يلتقى فيه إنكلپيوس بأسيلتوس Ascyltos بعد أن لجأ هـذا إلى ذلك المكان فراراً من محاضرة فى الفلسفة ، ومغامراتهما بين مدن إيطاليا الجنوبية وكهوفها هى الرباط الذى يربط أجزاء القصة المبعثرة ، كما أن تنازعهما على جيتون Giton الغلام الرقيق الوسيم هو الذى يفرق بينهما فى قصة اللصوص الغرامية . ويصل الرجلان آخر الأمر إلى بيت التاجر تريملكيو Trimalchio ، ثم يدور الجزء الباقى لدينا من الكتاب حول وصف السنا تريملكيونس Cina Trimalchionis وهو أعجب غذاء فى الأدب كله .

وتريملكيو هذا عبد سابق جمع ثروة طائلة واشترى ضياعاً واسعة ، يحياحياة المترفين الحديثى النعمة ، بين جدران قصر وفى جو ملىء بالاضطراب. وقد بلغت ضياعه من الاتساع حداً لا بد معه من كتابة صحيفة يومية يعرف بها مكاسبه ، وهو يطلب إلى ضيوفه أن يشربوا ويقول :

« إذا لم يعجبكم الخمر استبدلت به غيره ، ولست مضطراً إلى شرائه وذلك ما أحمده للآلهة ؛ إن كل ما يُسيل لعابكم فى هذا المكان قد جاءنى من إحدى مزارعى التى لم أرها بعد ؛ ولكنهم يقولون لى إنها فى طريق ترسينا Terracina

وتارنتم ، وإنى أفكر فى أن أضم صقلية لأملاكى الصغيرة الأخرى ، حتى إذا ما أردت أن أسافر إلى أفريقية استطعت أن أسير مجاوراً لشواطئ أملاكى . . . : وإذا ما حدثتكم عن الفضة فإنى أحدثكم عنها حديث الخبير فعندى منها أقداح فى حجم دنان الخمر . . . وعندى ألف جفنة تركها ميوس Mummius لسيدى . . . وأنا أشترى الأشياء بأبخس الأثمان وأبيعها بأغلاها وقد يكون لغيرى من الناس آراء غير هذه الآراء(٥) ؛ وهو رغم هذا رجل ظريف ، يسب عبيده ولكنه يعفو عنهم من فوره ، وهم من الكثرة بحيث لا يعرف صورته منهم إلا عشرهم ، وهو لا ينسى أنه فى الأصل عبد مثلهم ولذلك يقول عنهم قولا كريماً : « إن العبيد رجال قد رضعوا اللبن الذى رضعناه . . . وسوف يشرب عبيدى إذا طال بهم العمر الماء الذى يشربه الأحرار » . وهو يبرهن على حسن نواياه بأن يأمر بإحضار وصيته وقراءتها على ضيوفه فيجدون فيها أموالا مخصصة لقبريته التى يختمها بقوله مفتخراً إنه « اغتنى من لا شىء ، وإنه ترك وراءه ثلاثين مليون سسترس ، وإنه لم يستمع قط إلى فيلسوف »(٦) ؛

واختص وصف العشاء بأربعين صفحة ، وإن عدداً قليلا من الجمل لتكفى لوصف نكهته :

وكانت لدينا صينية مستديرة نقشت على أطرافها أبراج النجوم ، وقد وضع الخادم على كل برج خير ما يلائمه من الطعام ؛ فوضع جلبان الضأن على برج الحمل ولحم البقر على برج الثور . . . ورخم خنزيرة لم تلد على برج السنبلة . . . ووضع على برج الميزان كفتين فى إحداهما فطيرة وفى الأخرى كعكة . . . وأقبلت أربعة راقصات مسرعات ليرفعن الغطاء عن الطعام . وكان من تحته طيور محشوة ، وبطون خنازير ، يتوسطها أرنب ، وفى الجوانب أربعة تماثيل لمارسياس Marsyas يخرج من مثاناتها حساء متبل يقع على سمك يسبح فى الصحاف . . . : ثم جاءت صينية أخرى عليها خنزيرة ، علقت فى أنيابها سلال مثقلة بالبلح . ومن حولها صغارها مصنوعة

من الفطائر . . . ولما دفع الخادم السكين فى جانب الخنزيرة طار منها طير السمانى وحط كل واحد على ضيف من الأضياف (٧) .

ثم تدخل الحجرة أربعة خنازير بيضاء ويختار الضيوف ما يريدون آن يطهى لهم منها ؛ ويشوى لهم ما يختارونه وهم يطعمون ؛ ويؤتى لهم به ، فإذا قطع خرجت من بطنه أمعاؤه المحشوة والفطائر . وإذا قدمت الحلوى لم يجد أنكلبيوس لديه شهية لتناولها ، ولكن تريملكيو يحث ضيوفه على الأكل ويؤكد لهم أن الحلوى قد صنعت كلها من لحم خنزير . ويدلى خطاف من السقف ، يحمل لكل ضيف إبريقاً من المرمر مملوءاً بالعطر ويملأ العبيد أقداحاً فارغة بالخمر المعتق . وتذهب الخمر بعقل تريملكيو فيغازل غلاماً ، وتحتج عليه زوجته البدينة ، ويقذفها بكأس فى رأسها ويقول : « إن هذه العاهر السورية الرقاصة ضعيفة الذاكرة ، فلقد انتشلتها من سوق النخاسة وجعلتها امرأة ، وها هى ذى تنفخ أوداجها كالضفدعة . . . وهذه سنة الخلق إذا ولدت فى علية تحت سطح منزل ، فلن تستطيع أن تنام فى قصر » (٨) ثم يأمر قهرمانه أن يبعد تمثالها عن قبره « وإلا فإنها ستؤنبنى حتى بعد أن أموت » .

هذا كتاب فى الهجاء القوى المقذع ، واقعى فى تفاصيله وحدها ، ولا يصدق إلا على قسم صغير من الحياة الرومانية . وإذا كان كاتبه هو بترونيوس الذى عاش فى عهد نيرون ، وجب علينا أن نعده هجاء مقذعا للأغنياء المحدثين من الأرقاء المحررين ، كتبه رجل من الأشراف ، لم يكسب قط بعمله ما كان له من المال . والكتاب كله خلو من الرحمة ليس فيه شىء من العطف على الناس ، ولا يهدف إلى مثل أعلى ، ويرى كاتبه أن الفساد وسوء الخلق أمر طبيعى لا غبار عليهما ، وتعرض فيه حياة السوقة من الناس عرض من يستمتع بها ويعجب بها ولا يعلق بكلمة ما عليها . وفى هذا الكتاب تنساب الأقذار انسياباً سريعاً إلى الأدب الرومانى ، وتحمل إليه أحكام أصحابها ، وأذواقهم ، وألفاظهم الوقحة ، وحيويتهم

المرحة . وترى القصة أحياناً تصـــل إلى أعلى درجات السخف والبذاءة والسباب التى تتوج ملحمة جرجنتوا وبنتجرول ، وتعد تمهيداً لقصة « الأتان الذهبية » لأپوليوس Apuleius وتضارعها جيل بلاس Gils Blas التى كتبت بعدها بسبعة عشر قرنا ، وتواصل قصتا ترسترام شاندى Tristram Shandy وتم چونز Tom Jones ما فى قصصيها من التواء ، وجملة القول أن هذا الكتاب هو أعجب كتاب فى الأدب الرومانى كله .

الفصل الثالث

الفلاسفة

فى هذا العصر الشديد التعقد والانحلال ، الذى فرضت فيه على الحرية أضيق القيود وتحررت فيه الحياة من كل قيد ، فى هذا العصر ازدهرت الفلسفة إلى جانب الفسق والفجور ، ولم تترفعا قط عن التعاون والاتفاق . لقد ترك ما طرأ على الدين القومى من انحلال ثغرة فى الأخلاق حاولت الفلسفة أن تسدها ، فكان الآباء يرسلون أبناءهم ، وكثيراً ما كانوا يذهبون هم أنفسهم ، ليستمعوا إلى محاضرات رجال يعرضون عليهم قانوناً عقلياً للأخلاق الصالحة ، أو ستارا رسميا للشهوات المكشوفة ، وكان بعض من أوتواسعة من المال يستأجرون الفلاسفة ليعيشوا معهم ، وليعلموهم ، ليكونوا لهم مستشارين روحيين ، وأصحاباً عالمين . هكذا كان أتيوس لأغسطس ، لايكاد يبرم أمراً حتى يستشيره فيه ، ومن أجله (إذا كان لنا أن نصدق الحكام فيما يقولون) لم يقس على مدينة الإسكندرية ، ولما مات دروسس استدعت ليڤيا « فيلسوف أبيها » — وهذا نص عبارة سنكا — « ليعينها على تحمل أحزانها » . وكان لنيرون ، وتراچان وأورليوس بطبيعة الحال فلاسفة يقيمون معهم فى بلاطهم ، كما للملوك أمناء فى هذه الأيام . وكان الناس فى الساعات الأخيرة من حياتهم يستدعون الفلاسفة ، ليمهدوا لهم طريق الموت ، كما جرت العادة بعدئذ أن يستدعى الناس القساوسة(١٠).

ولم يكن الشعب ليغفر لهؤلاء الفلاسفة أنهم يتقاضون على أعمالهم هذه مرتبات أو أجوراً ، بل كان يرى أن الفلسفة فى حد ذاتها تغنى عن الطعام والشراب ؛ وكان الفلاسفة الذين لايقدرون مهنتهم حق قدرها عرضة لسخرية الشعب ، وانتقاد كونتليان Quintilian ، وهجو لوشيان Lucian وعداء

الأباطرة. والحق أن الكثيرين منهم كانوا جديرين بهذا كله، لأنهم كانوا يلبسون لباس الفلاسفة الخشن ، ويطلقون لحاهم طويلة، ليستروا بثوب العلم نهمهم ، وأطماعهم ، وبخلهم . وغرورهم . وفى ذلك يقول أحد الأشخاص للوسيان إن:

« دراسة قصيرة للحياة قد أقنعتنى بما فى جميع الأغراض الدنيوية من سخف وحقارة . . . وخير ما أستطيع أن أفكر فيه وأنا فى هذه الحالة النفسية هو أن أعرف حقيقة الحياة كلها من الفلاسفة . . . من أجل هذا اخترت أحسنهم — إذا كان وقار المنظر ، واصفرار الوجه ، وطول اللحية هى المقياس الذى يعتمد عليه فى هذه الحال . . . ثم وضعت نفسى بين أيديهم . وطلبت إليهم أن يعلمونى نظام الكون فى نظير مبلغ كبير من المال أؤديه إليهم فوراً ، ومبلغ آخر أؤديه إليهم حين أصـــل إلى الغاية فى الحكمة . ولكن الذى حدث لسوء الحظ أنهم لم يبددوا ما كنت فيه من جهل ، بل زادوا عقلى ارتباكا فوق ارتباكه بما جرعونى من بدايات وغايات ، وذرات وفراغ ، ومواد وأشكال . وكان أصعب ما لقيته أنهم جميعاً كانوا يريدون أن أصدقهم ، رغم ما بينهم من خلاف ، ورغم ما كان فى أقوالهم كلها من تناقض ؛ فكان كل واحد منهم يجذبنى نحوه . . . وكثيراً ما كان يعجز عن أن يخبرك بما بين مجارا وأثينة من أميال ، ولكنه لايتردد مطلقاً فى أن يخبرك بما بين الشمس والقمر من أقدام(١١) .

وكان معظم الفلاسفة الرومان من أتباع المذهب الرواقى ، أما الأبيقوريون فلم تترك لهم الخمر والنساء والطعام وقتاً للنظريات الفلسفية . وكان فى أماكن قليلة من رومة متسولون يدعون إلى الفلسفة الكلبية لا يعنون بالتفكير ، ويدعون الناس إلى البساطة والتقشف ، ويذعنون لما يطلبه الشعب إلى الفلاسفة أن يكونوا فقراء ، ومن أجل هذا كانوا أقل طوائف الفلاسفة احتراماً . ولكن سنكا اتخذ واحداً من هؤلاء صديقا وفياً له ؛ وقال فى هذا متسائلا : « ولم لا أجل دمتريوس وأعظمه ؟ لقد وجدته

كاملا لا ينقصه شيء . وقد دهش الحكيم صاحب الملايين حين رفض الفيلسوف الكلبي ، الذى لم يكد يجد عنده ثوباً يستر به عورته ، عطية من كالجبولا مقدارها مائتا ألف سسترس(١٢) .

وإذ كان الرواقى الرومانى رجل قتال لا ، جل تأمل وتفكير ، فقد كان يتجنب ما وراء الطبيعة ، ويرى ذلك من المطالب الميئوس منها ، وكان يجد فى الرواقية فلسفة أخلاقية تقوم على الآداب الإنسانية ، وتضم شمل الأسرة ، وتثبث النظام الاجتماعى من غير حاجة إلى رقابة علوية وسيطرة إلهية . وكان جوهر قانونه الأخلاقى هو سيطرة المرء على نفسه ، فكان يدعو إلى إخضاع الشهوات للعقل ، وكان يعوِّد إرادته ألا تطلب شيئاً يجعل راحته النفسية تعتمد على الطيبات الخارجية . وكان فى الناحية السياسية يعترف بأخوة البشر الخاضعين لأبوة الله . وكان فى الوقت نفسه يحب بلده وتراه على الدوام مستعداً لأن يضحى بحياته لكى يرد عنها وعن نفسه المذلة والعار . وكانت الحياة على الدوام رهن تصرفه ، له أن يغادرها حين تصبح نقمة عليه لا نعمة له ، وكان الرواقى يسعى لأن يكون ضمير الإنسان أقوى من كل قانون ، وكانت الملكية فى رأيه شراً لابد منه لحكم الأقطار الشاسعة المتباينة ، ولكن قتل الطاغية المستبد كان أمراً طيباً مرغوباً فيه كل الرغبة .

وقد استفادت الرواقية الرومانية أول الأمر من الزعامة ، ذلك أن القيود التى فرضت على الحرية السياسية دفعت الناس من السوق العامة إلى الدرس ، وبعثت فى أرق هؤلاء الناس وأظرفهم نزعة إلى الفلسفة التى تجعل الشخص المسيطر على نفسه ذا سلطان أقوى من سلطان الملك الثائر المنفعل . ولم تقيد الحكومة حرية الفكر أو القول ما دامت الأفكار والأقوال لا تتجه علناً إلى مهاجمة الإمبراطور وأسرته ، أو إلى الطعن على الآلهة الرسمية . فلما أن شرع الأساتذة وأولياؤهم من الشيوخ ينددون بالظلم والاستبداد شبت بين الفلسفة والحكم المطلق حرب عوان ، دامت حتى جمع بينهما الأباطرة المتبنَّون فوق العرش

ولما أمر نيرون ثراسى Thrasea بأن يقتل نفسه (٦٥) نفى فى الوقت نفسه موسونيوس روفس Musonius Rufus صديق ثراسى ، وأخلص فلاسفة رومة الرواقيين فى القرن الأول عقيدة ، وأشدهم عملا بفلسفته . وكان روفس قد عرف الفلسفة بأنها هى البحث عن السلوك الطيب ، وشرع فى هذا البحث بجد ومثابرة . وقد شهر بالتسرى رغم شرعيته ، وكان يطلب إلى الرجال أن يحافظوا فى أخلاقهم الجنسية على المستوى الذى يطالبون به النساء . وكان الرجل التولستوى النزعة يقول إن العلاقات الجنسية لا تباح إلا فى حالة الزواج وللمحافظة على النسل . وكان يعتقد بوجوب تكافؤ الفرص التعليميه للرجال والنساء على السواء ويرحب بوجود النساء فى محاضراته ، ولكنه يأمرهن أن يبحثن فى الزينة والفلسفه عن الوسائل التى يكملن بها أنوثتهن(١٣) . وكان الأرقاء أيضاً يشهدون محاضراته . وقد شرف أحد هؤلاء وهو Epictetus أستاذه بأن تفوق عليه . ولما أن شبت نار الحرب الأهلية فى رومةبعدموت نيرون خرج موسونيوس للجيش المهاجم ، وأخذ يخطب فيه ويشرح له فوائد السلم وفظائع الحرب . وسخر منه جنود أنطونيوس وعادوا إلى تحكيم السيف . ولما أن طرد ڤسپازيان الفلاسفة من رومة استثنى منهم روفس ، ولكنه احتفظ بسراريه .

الفصل الرابع

سنكا

وجدت الفلسفة الرواقية فى حياة لوسيوس أنيوس سنكا Lneius Annaeus Seneca أكثر مظاهرها مدعاة إلى الريبة ، كما وجدت فى كناياته أصدق تعبير عنها . وكان مولده فى قرطبة (Corduba) حوالى العام الرابع قبل الميلاد ، وسرعان ما جئ به إلى رومة وتلقى فيها كل ما كان يستطيع أن يتلقاه من تربية وتعليم . وقد تشرب الفلسفة من أبيه ، والرواقية من أتالس Attalus والفيثاغورية من سوتيون Sotion ، والفلسفة العملية من زوج عمته حاكم مصر من قبل الرومان . وحاول مدى عام أن يعيش على الأطعمة النباتية ، ثم عدل عن هذا ، ولكنه ظل طوال حياته مقلا من الطعام والشراب ، فكان من ذوى الملايين فى بيئته لا فى عاداته . وقد عانى كثيراً من مرض الربو وضعف الرئتين ، حتى فكر فى بعض الأحيان فى الانتحار . ومارس مهنة المحاماة ، واختير كوسترا فى عام ٣٣ م ، وبعد عامين من ذلك الوقت تزوج بمبيا بولينا Pompeia Paulina وعاش معها عيشة مستمرة عجيبة حتى مماته .

ولما ورث ثروة أبيه ، ترك مهنة المحاماة ، واشتغل بالكتابة . ولما أرغم كالجيولا كرمتيوس كوردس Cremutius Cordus على أن يقتل نفسه (٤٠) كتب سنكا إلى ابنته مقالة تعزية Consolatis ، وكانت هذه المقالات من الموضوعات التى يكتبها الخطباء والفلاسفة فى تلك الأيام . وأراد كالجيولا أن يقتله عقاباً له على وقاحته ، ولكن أصدقاءه أنجوه من القتل بقولهم إنه لن يلبث أن يموت من السل إذا ما ترك وشأنه . وبعد قليل من ذلك الوقت اتهمه كلوديوس بوجود علاقات غير شريفة بينه وبين يوليا ابنة جرمنكوس ،

وحكم عليه مجلس الشيوخ بالإعدام ، ولكن كلوديوس استبدل بهذا الحكم النفى فى جزيرة كورسكا .

وفى هذه الجزيرة الصخرية الوعرة قضى الفيلسوف فى عزلته ثمانى سنين (٤١ — ٤٩) بين أقوام لم يرتفعوا قط عن بدائيتهم التى وصفهم بها أوفد فى تومى Tomi . وضبر فى أول الأمر على هذه الكارثة صبر الزواقين الحقيقيين ، وكتب إلى أمه مقالا يواسيها فيه « Consolatio ad Helviam » ، فلما أن توالت عليه أعوام الشقاء ، ضعفت نفسيته واستولى عليه اليأس ، فكتب إلى أمين سر كلوديوس مقالة Consolatio ad Polybium يرجوه فيها متذللا أن يعفو عنه ، ولما لم يفده هذا الرجاء حاول أن يخفف من آلامه بكتابة المآسى .

وأكبر الظن أن هذه المسرحيات العجيبة التى يكاد كل شخص فيها أن يكون خطيباً ، إنما كتبت لتقرأ وتدرس لا لتمثل على المسرح ، ذلك أننا لم نسمع قط أن واحدة منها مثلت ، وغاية ما فى الأمر أن بعض الحادثات ذات الروعة أو بعض الخطب الطنانة الرنانة ، لحنت ومثلت تمثيلا هزليا . ونرى الفيلسوف الرقيق فى هذه المسرحيات يجرى الدماء على المسرح كأنه يريد ألا يكون هذا المسرح أقل بشاعة وسفكا للدماء من الاحتفالات والألعاب . على أنه رغم ما بذله فيها من جهود جبارة ، لم ينجح فى مسرحياته لانصرافه فيها إلى التفكير أكثر من انصرافه إلى الإخراج المسرحى ، فهو يفضل الأفكار على الرجال ، ولا يدع فرصة تمر دون أن يشغلها بالتأملات والعواطف والفكاهة . ولسنا ننكر أن مسرحياته أبياتاً جميلة ، ولكن الإنسان لا يلام إذا لم يعلق شىء منها بذاكرته بعد سماعها . على أننا يجب أن نضيف إلى هذا أن كثيرين ممن يعتد بحكمهم لا يتفقون معنا فى الرأى ، ومن هؤلاء اسكلجر Scaliger سيد النقاد جميعاً فى عصر النهضة والذى يفضل سنكا عن يوريديز .

ولما أن عادت الآداب القديمة إلى الحياة ، كان سنكا هو الذى اتخذ

نموذجاً لأولى المسرحيات التى كتبت باللغات الحديثة ، وعنه أخذت الصيغ الفصيحة ، ووحدة الزمان والمكان التى امتازت بها مسرحيات كورنى Corneille وراسين Racine ، والتى ظلت مسيطرة على المسرح الفرنسى حتى القرن التاسع عشر . ولقد كانت ترجمة هاى وود Heywood (١٥٥٩) لمسرحيات سنكا فى إنجلترا ، التى كانت أقل البلاد تأثراً بنفوذه ، المثال الذى نسجت على منواله مأساة جوربودك Gorboduc أولى المآسى الإنجليزية ، وكان لهذه المآسى أثرها فى مسرحيات شيكسپير .

وحدث فى عام ٤٨ أن حلت أجرپينا الصغرى محل مسالينا فى السطرة على كلوديوس وعلى رومة ، وكانت تتوق إلى أن تجعل من ابنها نيرون ، وكان وقتئذ فى الحادية عشرة من عمره ، اسكندراً ثانياً ، فأخذت تتلفت حولها تبحث له عن أرسطاطاليس ، حتى وجدته فى جزيرة كورسكا ، فأمرت باستدعاء سنكا وأعادته إلى مكانه فى مجلس الشيوخ ، وظل خمس سنين يعلم تلميذه الشاب ، وخمس سنين أخرى يرشد الإمبراطور ويمسك بزمام الدولة . وكان طوال هذه العشر السنين يدبج الرسائل لإصلاح شأن نيرون ، كما كتب عدة رسائل مختلفة يعرض فيها الفلسفة الرواقية عرضاً ظريفاً . ومن هذه الرسائل رسائله : **فى الغضب** ، **وفى قصر الحياة** ، **وفى هدوء الروح** ، **وفى الرحمة** ، **وفى الحياة السعيدة** ، **وفى ثبات المسرح** ، **وفى الفوائد** ، **وفى حسن التدبير** . وهذه الرسائل التى تعنى أكثر ما تعنى بالشكل والمظهر لاتبرز أحسن مواهب سنكا ، فهى كمسرحياته ملأى بالنكات ، ولكن هذه النكات التى يجدها القارىء منثورة فى غير ارتباط فى صحف الكتاب كلها تفقد بهجتها آخر الأمر وتبعث الملل فى نفس القارىء . على أن قراء سنكا مع ذلك كانوا يقرءون هذه المقالات من حين إلى حين ، ولم يكونوا يشمئزون من النكات المرحة التى أغضبت كونيان الصارم(١٤)

المتزمت(١٤) ، ولا من المحسنات اللفظية التى لم يرض عنها ذوق فرنتو Fronto العتيق . لقد كان يسر أولئك القراء أن وزيرهم الأول ينطق بأقواله الظريفة ، وأنه يحاول كما يحاول تلميذه بكل ما أوتى من جهد أن يكسب ثناءهم عليه . وقد ظل سنكا كثيراً من السنين حامل لواء الكتاب ، والساسة ، وزراع الكروم فى إيطاليا .

وضاعف ما ورثه عن أبيه من ثروة باستثمارها استثماراً استعان عليه فيما يظهر بمنصبه الرسمى وعلمه الواسع ؛ وإذا كان لنا أن نصدق ديو فإنه كان يقرض المال لأهل الولايات بربافاحش أثار الفزع والفتنة فى بريطانيا حين فاجأ مدينيه فيها بطلب أمواله البالغ قدرها ٤٠ر٠٠٠ر٠٠٠ سسترس(١٥) . ويقال إن ثروته بلغت ٣٠٠ر٠٠٠ر٠٠٠ سسترس أى (٣٠ر٠٠٠ر٠٠٠ ريال أمريكى)(١٦) . وقد اتهمه جاسوس من أصدقاء مساليتا يدعى پبليوس سوليوس Publius Sullius علناً بأنه « منافق ، زان ، خليع ، يذم حاشية الإمبراطور ولا يفارق قصره : ويذم الترف ، ويتباهى بأن له خمسمائة خوان من الأرز والعاج ، ويندد بالثروة ويستنزف دماء الولايات بالربا الفاحش »(١٧) . وقنع سنكا كما قنع قيصر بمقارعة الحجة بالحجة ، وكان فى وسعه أن يأمر بإعدام خصمه . ولقد أعاد ذكر هذه التهم فى مقاله « **عن الحياة السعيدة** » ورد عليها بأن الحكيم لا يتحتم عليه أن يكون فقيراً ، فإذا جاءه المال من طريق شريف كان فى وسعه أن يقبله ؛ ولكن يجب أن يكون فى مقدوره أن يتخلى عنه متى شاء دون أن يندم عليه »(١٨) ، وكان فى هذه الأثناء يعيش عيشة الزهد والتقشف بين أثاثه الجميل ، ينام على خشبة صلبة خشنة ، ولا يشرب إلا الماء القراح ، ولا يتناول إلا القليل من الطعام ، حتى ضمر جسمه من قلة التغذية قبل وفاته(١٩) . وكتب فى ذلك يقول : « إن كثرة الطعام تذهب بالذكاء ، والإفراط فيه يخنق الروح »(٢٠) . أما ما اتهم به من الشذوذ الجنسى فلعله كان

يصدق عليه أيام شبابه ، ولكنه اشتهر بعطفه الدائم على زوجته . والحق أنه لم يقرر فى حياته أيهما أحب إليه الفلسفة أو السلطة ، الحكمة أو السعادة ؛ ولم يقتنع فى يوم من الأيام بتعارض الفلسفة مع السلطة ، أو الحكمة مع السعادة ؛ وكان يعترف بأنه حكيم جد ناقص ، ومن أقواله فى هذا : « إنى لا أمتدح الحياة التى أحياها بل الحياة التى يجب أن أحياها ، وهى الحياة التى أحبو إليها حبواً ، وهى بعيدة عنى كل البعد »(٢١) ، وأينا لا يصدق عليه هذا الوصف ؟ وإذا لم يكن مخلصاً فى قوله إن « الرحمة لا تزين أحداً من الناس بقدر ما تزين الملك أو الزعيم »(٢٢) ، فلا أقل من أنه قد وصف هذه العاطفة وصفاً لا يقل جمالا عن وصف بورشيا Portia لها(*). وقد ندد بمعارك المجتلدات التى كانت تنتهى بقتل المصارعين(٢٤) ، وكان من أثر ذلك أن حرمها نيرون ، وخفف من حدة النقد فى أيامه بما يسميه تاستس : « كياسته فى تلقين الحكمة »(٢٥) ، ولم يكن فى حياته يتطلب الكمال ، كما لم يكن يمارسه عملياً .

ولقد سبق القول بأنه حكم الإمبراطورية حكما صالحا وأنه أساء إلى سمعته بالتغاضى عن شر بما ارتكبه نيرون من الجرائم ، و « السماح بارتكاب الكثير من الشر حتى يكون فى مقدوره أن يفعل القليل من الخير »(٢٧) . وكان يحس بما فى منصبه الرسمى من ذلة ومهانة ، ويتوق إلى التحرر من عبوديته ، ووصف قصر الإمبراطور بأنه « سجن يشقى فيه العبيد » . وكان يتمنى أن لو قضى حياته كلها فى دراسة الحكمة ، وتجنب دياجير السلطان . وكان يسره أن يتخلى من حين إلى حين عن مشاغله السياسية ، وأن يستمع وهو فى سن الستين إلى محاضرات مترودكس Metronax فى الفلسفة كما يستمع إليها الصبى الحريص على الإفادة منها . وطلب فى عام ٢٢ — وكان وقتئـــذ فى السادسة والستين من عمره — أن يؤذن له باعتزال منصبه فى القصر ، وكان وقتئذ أقل شأناً من منصبه الأول ،

(*) يشير المؤلف إلى وصف بورشيا البليغ للرحمة فى رواية تاجر البندقية لشيكسبير . (المترجم) .

ولكن نيرون لم يجبه إلى طلبه . ولما طلب نيرون إلى جميع من فى الإمبراطورية أن يكتتبوا فى إعادة بناء رومة بعد الحريق العظيم الذى دمرها فى عام ٦٤ ، تبرع هو بالجزء الأكبر من ثروته لهذا الغرض . واستطاع فيما بعد أن ينسحب شيئاً فشيئاً من بلاط الإمبراطور ، وأن يقضى جزءاً متزايداً من وقته فى بيوته فى كمبانيا ، لعله يستطع بعزلته الشبيهة بعزلة النساك أن يفر من الإمبراطور ومن جواسيسه . وظل وقتاً ما لا يطعم إلا التفاح البرى ولا يشرب إلا الماء الجارى خشية أن يدس له السم فى الطعام .

وفى هذا الجو الملىء بالرعب والفزع دوّن بين عامى ٦٣ ، ٦٥ دراساته فى التاريخ الطبيعى Questiones Naturales كما كتب ألطف كتاباته كلها وهى رسائله الأخلاقية Epistulae Morales . وهذه الرسائل أحاديث عارضة شخصية موجهة إلى صديقه لوسليوس والى صقلية المثرى ، الشاعر ، الفيلسوف والأبيقورى الصريح . وقل أن يجد الإنسان فى الأدب الرومانى كتباً تبعث على السرور خيراً من هذه المحاولات الطريفة لتكييف الرواقية حسب حاجات الرجل الواسع الثراء . وتعد هذه الرسائل بداية المقالة الخالية من التكلف والصنعة التى أمست فيما بعد الوسيلة التى لجأ إليها أفلوطرخس ، ولوسشيان ، ومنتانى ، وفلتير ، وروسو ، وبيكن ، وأدسن واستيل للتعبير عن آرائهم . وإن القارئ ليشعر وهو يقرأ هذه الرسائل بأنه على اتصال برومانى مستنير ، رحيم ، متسامح ، سما إلى الذروة وتعمق إلى أبعد حد فى الأدب ، والسياسة ، والفلسفة ، ويحس كأن زينون يتحدث فيها برقة أبيقور وتسامحه وبسحر أفلاطون . ويعتذر سنكا للوسليوس عن أسلوبه المهلهل الذى لا يبدو فيه كبير أثر للعناية (وهو مع ذلك أسلوب لاتينى رائع الحسن) ، ويقول فى اعتذاره هذا :- « وأحب أن تكون رسائلى إليك هى عين حديثى ، إذا ما جلسنا أو سرنا معاً »(٣٠) . ويضيف إلى ذلك قوله :

« لست أكتب هذا لجمهرة الناس ، بل أكتبه إليك ، فحسبى وحسبك

أن يستمتع كل منا للآخر « Satis magnum alteri theatrum sumus »[٣١]، وإن كان السياسى الشيخ يرجو بلا ريب أن يسترق الناس هذا الحديث . وهو يصف ربوَه وصفاً رائعاً وإن كان لا يرثى فيه لنفسه ، ويسمي هذا المرض تسمية مرحة ظريفة فيقول إنه « التدرب على الموت » بأخذ « أنفاس أخيرة » متقطعة تدوم كل منها ساعة . وكان وقتئذ فى السابعة والستين من العمر ولكنه لم يبلغها إلا بجسمه ، أما « عقلى فقوى يقظ ، يجادلنى فى موضوع الشيخوخة ، ويجهر بأنها فترة ازدهاره »[٣٢] . وهو يبتهج إذ واتته الفرصة آخر الأمر لقراءة الكتب القيمة التى اضطر إلى إغفالها زمناً طويلا . ويلوح أنه فى ذلك الوقت قد عاد إلى قراءة كتب أبيقور ، لأنه ينقل عنها فقرات كثيرة وينقلها بحماسة تزرى بأمثاله من الرواقيين ، ويستولى عليه الرعب حين يشهد تطرف كالجيولا ، ونيرون . وآلاف غيرهما من الرومان فى نزعتهم الفردية وفى الجرى وراء شهواتهم ؛ يريد أن يجد وسيلة يقاوم بها المغريات التى تحيط بمن يتحرر عقله قبل أن ينضج خلقه ، ويبدو أنه أخذ على نفسه أن يرد على الأبيقوريين ويفحمهم بأقوال نطق بها زعيمهم الذى دنسوا اسمه بأعمالهم ، والذى لا يجرؤون على فهم تعاليمه .

وأول درس يلقيه على الناس فى الفلسفة هو أننا لا نستطيع أن نكون عقلاء حكماء فى كل شىء ، وأنا لسنا فى حقيقة أمرنا إلا قطعاً متناثرة فى الفضاء اللانهائى ، ولحظات قصيرة فى الأبدية ، وإن محاولة هذه الذرات المتشعبة أن تصف الكون ، أو الكائن الأعلى ، لعمل ترتج منه الكواكب سخرية ومرحاً . ومن أجل هـــذا فإن سنكا لم يكن فى حاجة إلى الدين أو إلى علم ما وراء الطبيعه ؛ وفى وسع الإنسان أن يثبت من كتاباته أنه كان من الموحدين ، أو المشركين ، أو الكافرين ، أو الماديين ، أو الأفلاطونيين ، أو القائلين بوجدة الموجود ، أو ثنائيته . وهو يرى فى بعض الأحيان أن الله قوة مدبرة شخصية ،

نهيمن على كل شيء ، « تحب الصالحين من الناس »(٣٣) ، وتستجيب إلى دعواتهم. ، وتعينهم بلطفها الإلهى(٣٤) . ثم تراه فى فقرات أخرى يقول إن الله هو العلة الأولى فى سلسلة متصلة الحلقات من العلل والمعلولات ، وإن القوة النهائية هى القدر وهو علة لا ترد ولا تنقض ، تصرف شئون البشر والآلهة على السواء . . . تقود الطائعين وتجر الغاضبين »(٣٦) . وهذا التردد نفسه يطمس فكرته عن النفس البشرية ، فهى عنده نسمة مادية رقيقة تبعث الحياة فى الجسد ولكنها أيضاً « إله يسكن » فى الهيكل البشرى « كما يسكن الضيف » عند مضيفه (٣٧) . وهو يتحدث حديث المرتجى عن حياة بعد الموت ، تكمل فيها المعرفة والفضيلة(٣٨) ؛ ويسمى الفساد الخلقى كما سماه من قبل « حلماً جميلا »(٣٩) . وحقيقة الأمر أن سنكا لم يفكر فى هذه المسائل تفكيراً يصل به إلى نتيجة متسقة (أو عامة) ، بل هو يتحدث عنها حديث السياسى المذبذب الذى يوافق الناس جميعاً . ذلك أنه عمل بدروس أبيه الخطابية فنجح فيما كان يبغيه نجاحاً فوق ما يجب ، واستطاع أن يعبر عن جميع الآراء المتناقضة بعبارات بليغة لا يستطيع القارئ أن يقاوم أثرها فى نفسه .

وهذا التردد عينه يفسد فلسفته ويجعلها معاً ، فهو مسرف فى رواقيته إلى حد يجعل فلسفته غير عملية ، وهو لين إلى حد لا يستطيع معه أن يكون رواقيا حقيقيا ، وهو يرى من حوله فساداً خلقيا ينهك الجسم ويزرى بالنفس ، ولا يرضى هذا أو ذاك ؛ ويرى أن الشره والترف قد قضيا على الطمأنينة والصحة ، وأن كل ما أفاده الإنسان من القوة أن صار وحشاً أقدر على الأذى من سائر الوحوش فهل من سبيل إلى نجاة الإنسان من هذا الاضطراب الشائن المذل ؟

لقد قرأت اليوم قول أبيقور : « إذا شئت أن تستمتع بالحرية الحقة ، وجب عليك أن تكون عبداً للفلسفة ؛ ذلك أن الرجل الذى يخضع لها يتحرر لساعته .. إن الجسم إذا شفى من مرضه مرة كثيراً ما ينتابه المرض مرة أخرى ..

أما العقل ، فإذا شفى ، فلن يعود إليه المرض أبداً ، وسأحدثكم عما أعنيه بالصحة : إن الصحة فى رأيي أن يكون عقل الإنسان راضياً واثقاً ، يدرك أن الأشياء التى يسعى إليها الناس جميعاً ، وكل الفوائد التى يعملون لها أو ينالونها ، لا أثر لها فى الحياة السعيدة ... وسأدلكم على قاعدة تقيسون بها أنفسكم وتحولكم من حال إلى حال ! إنكم تصلون إلى ما تبغونه لأنفسكم فى ذلك اليوم الذى تدركون فيه أن الناجحين هم أكثر الناس شقاء(٤٠) .

« والفلسفة هى علم الحكمة ، والحكمة هى فن العيش ، والسعادة هى الغرض الذى نبتغيه ، ولكن الطريق إليها هو الفضيلة لا اللذة . والحِكَم القديمة التى يهزأ بها الناس صحيحة صادقة تثبت التجارب صدقها فى كل يوم . وسوف ننال آخر الأمر بالشرف ، والعدالة ، والحلم ، والرأفه ، قدراً من السعادة أكثر مما نناله بالجرى وراء اللذة . وما من شك فى أن اللذة طيبة مستحبة ، ولكنها لا تكون كذلك إلا إذا اتفقت مع الفضيلة ؛ وليس فى المقدور الرجل العاقل أن يتخذها هدفاً له ، ومثل الذين يجعلونها غرضهم فى الحياة كمثل الكلب الذى يختطف كل قطعة من اللحم تلقى إليه ، ويبتلعها كلها ، وهو بعدئذ لا يستمتع بها ، بل يقف فاغراً فاه يتلهف على قطعة أخرى(٤١) .

ولكن كيف يحصل الإنسان على الحكمة ؟ إن السبيل إلى ذلك أن تمارسها كل يوم بقدر مهما يكن ضئيلا ، وأن تمتحن سلوكك فى آخر كل يوم ، وأن تكون قاسياً على أغلاطك ليناً على أغلاط غيرك ، وأن تصاحب من هم أعظم منك حكمة وفضيلة ، وأن تتخذ لنفسك رجلا لا تراه عينك مشهوداً له بالحكمة ليكون لك ناصحاً وقاضياً تحتكم إليـــه فى شئونك ، ويساعدك على الوصول إليه أن تقرأ كتب الفلاسفة ، ولست أقصد بهذه الكتب قصص الفلسفة الموجزة ، بل أقصد بها مؤلفات الفلاسفة أنفسهم ، « ولا ترجُ قط أنك ستستطيع فى يوم من الأيام أن تحصل على زبد حكمة النابهين من الرجال بقراءة خلاصات موجزة لهذه

الحكمة »[٤٢]، « إنك ستغادر كل واحد منهم أسعد مما كنت وأشد رغبة فى حكمته ، ولن يتركك واحد منهم تفارقه صفر اليدين ... ألا ما أعظم تلك السعادة ، وما أنبل تلك الشيخوخة اللتين تنتظران ذلك الرجل الذى يحتمى بجاههم ويتخذهم سادة له وأنصاراً ! »[٤٣] . اقرأ الكتب الطيبة مراراً ، فذلك خير لك من قراءة الكتب الكثيرة ؛ وسافر سفراً بطيئاً ، ولا تسرف فى الأسفار ، لأن « الروح لا تنضج وحدتها إلا إذا كبحت جماح تشوفها وتجوالها »[٤٤] . وأولى سمات العقل المنظم أن يكون صاحبه قادراً على أن يبقى فى مكان واحد ، وأن يطيل المكث مع أصدقائه[٤٥] . وإياك والجموع الكبيرة فإن « الناس وهم مجتمعون أخبث منهم وهم فرادى ، فإذا اضطررت أن تكون فى حشد كبير ، فأنت أشد ما تكون فى حاجة إلى الانطواء على نفسك »[٤٦] .

وآخر درس يتعلمه الرواقى هو احتقار الحياة وإيثار الموت . ذلك أن الحياة ليست على الدوام ممتعة إلى الحد الذى يجعلها جديرة بأن يطول أجلها ؛ ومن الخير للإنسان بعد حمى الحياة ونوباتها أن ينام ليستريح . « وهل ثمة شىء أحط من أن يضطرب الإنسان ويغضب وهو على عتبة السلام ؟ »[٤٧] . وإذا وجد الإنسان الحياة محزنة ، واستطاع أن يغادرها دون أن يضر ذلك ضرراً بليغاً بغيره من الناس ، فعليه أن يشعر بأن من حقه أن يختار الوقت الذى يغادرها فيه والطريقة التى يغادرها بها . ويحبذ سنكا للوسليوس الانتحار كأنه سيكون هو وريثه فيقول :—

« من الأسباب التى لا يستطيع الإنسان معها أن يتذمر من الحياة أنها لا تستبقيه فيها رغم إرادته ... كم من مرة قطع لك وريد ليقل بذلك وزنك ! وإذا ما طعنت نفسك فى قلبك فإنك لن تكون فى حاجة إلى جرح واسع حتى تموت ؛ وإن مشرطا يشق لك الطريق إلى الحرية ، وفى وسعك أن تشترى راحتك بوخزة إبرة ...[٤٨] وحيثما أدرت بصرك وجدت الوسيلة التى تقضى بها

على متاعبك . فهل ترى هذه الربوة الشديدة الانحدار ؟ إنها تهبط بك إلى الحرية ؟ أو هل ترى هذا النهر أو ذاك الحوض أو ذلك البحر ؟ — إن الحرية فى أعماقها(٥٠) ... ولكنى نحدثك فأطلت الحديث ، وكيف يستطيع الإنسان أن يختم حياته إذا لم يكن فى وسعه أن يختم رسالة يكتبها ؟ (٥١)... أما أنا ياعزيزى لوسليوس فقد بلغت أرذل العمر ، وقد عشت كفايتى ، وها أنا ذا فى انتظار الموت . وداعاً أيها الصديق »(٥٢)

واستجابت الأقدار لدعائه ، فقد أرسل إليه نيرون تربيونا يستجوبه فيما اتهم به من أنه يتآمر على جعل پيزو إمبراطوراً ؛ فأجاب الرسول بأنه لم يعد يهتم بالسياسة ، وأنه لا ينشد غير السلام ، وأن تتاح له الفرصة للعناية « ببنيته المتهدمة الضعيفة » . ويقول التربيون : « إنه لم تظهر عليه أعراض الخوف أو أمارات الحزن . . . وإن أقواله ونظراته كانت تنم عن عقل هادئ قويم ثابت » . وقال نيرون للتربيون : « عد إليه وقل له أن يموت » ويقول تاستس إن « سنكا تلقى النبأ بهدوء واطمئنان » ، ثم عانق زوجته ، وطلب إليها أن تتخذ من حياته الشريفة النبيلة ومن دروس الفلسفة سبباً للسلوى والاطمئنان . ولكن پولينا أبت أن تعيش بعد مماته ، فلما أن فتحت أوردته ، أمرت هى الأخرى بفتح أوردتها ، ثم استدعى أحد أمناء سره وأملى عليه رسالة وداع للشعب الرومانى . وطلب بعدئذ قدحاً من شراب السكران ، فجىء له به ، كأنه اعتزم أن يموت ميتة سقراط . ولما أن وضعه الطبيب فى حمام فاتر ليخفف به ألمه ، رش الماء على أقرب الخدم له وهو يقول : « هذا ماء ساكب لچوف المنقذ » ثم فارق الحياة بعد آلام مريرة (٦٥) ، وأمر نيرون الطبيب بأن يربط معصمى پولينا على الرغم منها . ويمنع خروج الدم من أوردتها ففعل ، وبذلك عاشت بعد زوجها بضع سنين ؛ ولكن امتقاع لونها الدائم كان يدل على عزمها القوى الثابت .

ورفع الموت من قدر سنكا وأنسى جيلا من الأجيال مواقفه وتذبذبه . وكان

ككل الرواقيين يستخف بالسّلطة ولا يقدر قوة الوجدان والعواطف حق قدرها ، ويغالى فى قيمة العقل ويفرط فى الاعتماد عليه ، ويثق فوق ما يجب بالطبيعة وهى منبت جميع أزاهير الشر والخير على السواء . ولكنه جعل الرواقية فلسفة بشرية وأنزلها من عليائها حتى أضحت فلسفة حية فى متناول بنى الإنسان ومهد بها للمسيحية . ولقد كان تشاؤمه ، وتنديده بفساد الأخلاق فى أيامه ، ودعوته الناس أن يقابلوا الغضب بالحلم(٥٤) ، وانشغاله بأمر الموت(٥٥) ، كان كل هذا مما حمل ترتليان Tertullian على أن يقول عنه إنه « منّا »(٥٦) ، كما حمل أوغسطين على أن يقول فيه « ماذا يستطيع المسيحى الضميم أن يقول أكثر مما قاله هذا الوثنى ؟ »(٥٧) . نعم إن سنكا لم يكن مسيحياً . ولكنه فى القليل طالب بالقضاء على القتل والسلب ، ودعا إلى الحياة البسيطة المهذبة ، وقلل ما كان هناك من فروق بين الرجل الحر والمحرز والرقيق حتى أضحت هذه الفروق لا تزيد على « الألقاب التى خلقتها المطامع أو الأخطاء »(٥٨) . وكان الذى استفاد أكبر فائدة من تعاليم سنكا عبداً فى بلاط نيرون وهو إپكتتس . كذلك صاغت كتاباته نرفا Nerva وتراچان إلى حد ما ، وكانت أعماله مثالا يحتذى فى السياسة الإنسانية القائمة على الإخلاص وإرضاء الضمير . وقد ظل إلى آخر العهود القديمة كما ظل طوال العصور الوسطى محبباً للجماهير ؛ ولما حل عهد النهضة وضعه پترارك فى الموتبة الثانية بعد ڤرچيل ، وصاغ نثره على مثال نثر سنكا . وترجم صهر منتانى كتاباته إلى اللغة الفرنسية ، وكان منتانى نفسه يقتبس من أقواله كما يقتبس سنكا من أبيقور . وكان إمرسن يقرأ مؤلفاته مراراً وتكراراً(٥٩) . حتى أضحى سنكا الأمريكيين . نعم إن الإنسان قلما يجد فى أقوال سنكا أفكاراً جديدة مبتكرة ، ولكن هذا يغتفر له ، لأن كل الحقائق الفلسفية قديمة ، ولا شىء فيها مبتكر إلا الخطأ ، ولقد كان رغم أخطائه كلها أعظم الفلاسفة الرومان ، كما أنه كان فى كتبه على الأقل أرجحهم عقلا وأرقهم قلباً ؛ وكان بعد شيشرون أحب المنافقين إلى القلوب فى التاريخ كله .

الفصل الخامس

علوم الرومان

لقد أطلنا الكلام فيه أكثر مما يجب ؛ ولكننا مع ذلك لم نفزع منه بعد ، فقد كان عالماً طبيعياً أيضاً . ذلك أنه أخذ يسلى نفسه فى السنين الخصيبة الواقعة بين اعتزاله شئون الحكم وموته بالتفكير فى المسائل الطبيعية كالبحث عن تفسير للمطر ، والبرد ، والثلج ، والرياح ، والمذنبات ، وأقواس قزح والزلازل ، والأنهار ، والينابيع . وقد أشار فى مسرحية ميديا Medea إلى وجود قارة أخرى على الجانب الآخر من المحيط الأطلنطى(٦٠) . وبنفس هذه اللقانة الطبيعية كتب وهو يتامل ملايين النجوم فى السماء : « كم من كرات تتحرك فى أعماق الفضاء لم تصل بعد إلى عيون بنى الإنسان »(٦١) . ثم يضيف إلى هذا وكأنه قد كشف عن بصره الغطاء : « كم من أشياء سيتعلمها أبناؤنا ولا نستطيع الآن أن نتصورها فى خيالنا ! — وكم من أشياء ستظل مجهولة مئات السنين بعد أن تنسى أسماؤنا ! . . . ويدهش أبناؤنا من جهلنا »(٦٢) ، ولقد صدق فى قوله هذا ، فنحن يدهشنا جهله . ذلك أن سنكا رغم بلاغته لا يضيف شيئاً إلى ما قاله أرسطاطاليس وأراتس Aratus ، وهو يستعير الشىء الكثير من بوسيدونيوس Poseidonius . ويؤمن بأن فى مقدور الإنسان أن يتنبأ بالغيب بالرغم من معارضة شيشرون لهـــذه العقيدة ، ويتورط فى بيان العلل النهائية للمعلولات مخالفاً بذلك عقيدة لكريشيوس ، وكثيراً ما يقطع أقواله العلمية بما يضفه فيها من وصايا أخلاقية ، فهو ينتقل بحذق عظيم من الكلام على بلح البحر إلى الكلام فى الترف ، ومن المذنبات إلى أسباب الانحطاط . وكان آباء الكنيسة يحبون هذا الخلط بين الأجرام السماوية والأخلاق ، ولذلك جعلوا كتاب

المسائل الطبيعية أشهر كتاب علمي فى العصور الوسطى .

وكان فى رومة عدد قليل من الرجال ذوى النزعة العلمية والولع بالعلوم ، ومن هؤلاء ڤارو ، وأجريپا ، وپمپنيوس ميلا Pomponius Mela ، وسلسس Celsus ، ولكن علمهم لم يكن يتعدى نطاق تقويم البلدان ، وفلاحة البساتين ، والطب . أما فيما عدا هذا فلم يكن العلم الطبيعى قد انفصل بعد عن السحر ، والخرافات ، والدين ، والفلسفة ، وكان قوامه ما تجمع من المشاهدات والروايات ؛ وقلما كان يشمل بحوثاً جديدة عن حقائق الأشياء ، وكانت التجارب فيه جد نادرة . وبقى الفلك حيث تركه البابليون واليونان ، فكان الوقت يقاس بالساعات المائية ، وبالمزاول ، وبالمسلة الكبرى التى اختلسها أغسطس من مصر وأقامها فى ميدان المريخ ؛ وكان ظلها يقع على طوار نقشت عليه علامات من نحاس ، تدل على ساعات النهار وعلى فصول السنة(٦٣) . وكان النهار والليل يحددان بشروق الشمس وغروبها ، وينقسم كل منهما إلى اثنتى عشرة ساعة ، وبذلك كانت تطول ساعة النهار ، وتقصر ساعة الليل فى فصل الصيف عنها فى فصل الشتاء وكان التنجيم من المعتقدات الشائعة التى يكاد يؤمن بها كل إنسان . وفى هذا يقول پلنى إن الناس كلهم فى أيامه (٧٠ م) — السذج منهم والمتعلمون — يعتقدون أن مصير الإنسان يقرره النجم الذى يولد هو ساعة مطلعه(٦٤). وكانوا يؤيدون هذه العقائد بحجج طلية كقولهم إن نمو النبات ، مرده إلى الشمس (*) ، ولعل فصول التزاوج عند الحيوانات مردها إليها كذلك. ، وإن خصائص الناس الجسمية والخلقية تتأثر بعوامل المناخ التى تتأثر هى أيضاً بالشمس ، وإن أخلاق الأفراد ومصائرهم لا تختلف عن هذه الظواهر العامة فى أنها نتيجة لأحوال جوية لا نعرفها حق المعرفة . ولم يرفض أحد التنجيم إلا المتشككون أتباع الأقديمية المتأخرة الذين أنكروا ما يدعيه

(*) إن الكثيرين من الزراع فى هذه الأيام ينظمون زرعهم حسب أوجه القمر

رجاله من علم ، والمسيحيون الذين سخروا منه وعدوه ضرباً من الوثنية . أما الجغرافية فكانت دراستها أكثر واقعية وكان الغرض منها أن يستعان بها على الملاحة . وقد نشر بمپنيوس ميلا Pomponius Mela (٤٣ م) خرائط قسم فيها سطح الأرض إلى منطقة حارة فى الوسط ، ومنطقتين معتدلتين شمالية وجنوبية . وكان الجغرافيون الرومان يعرفون أوربا وشمالى آسية الغربى ، وشماليها الشرقى ، أما سائر أجزاء العالم فكانت لديهم عنها أفكار غامضة ، وأقاصيص خرافية غريبة . وقد وصلت السفن الأسبانية والأفريقية الصغيرة إلى جزائر مديرة Madeira وقناريا أو الخالدات (Canary) [٦٥] غير أنه لم يقم فى ذلك الوقت رجل مثل كولمبس ليحقق حلم سنكا .

وكان أوسع المنتجات العلمية الإيطالية . وأكثرها دلالة على الجد ، وأبعدها عن العلم الصحيح ، كتاب التاريخ الطبيعى Historia Naturalis [٦٧] الذى وضعه كيوس پلنيوس سكندس Caius Plinius Secondus . وقد قضى كيوس حياته كلها تقريباً جنديا ، ومحامياً ، ورحالة ، وحاكما ، وقائداً للأسطول الرومانى فى غربى البحر المتوسط ، ولكنه رغم هذه المشاغل كلها ألف رسائل فى الخطابة ، والنحو ، والحراب ، وكتب تاريخاً لرومة ، وتاريخا . آخر لحروب رومة فى ألمانيا ، وسبعة وثلاثين « كتاباً » فى التاريخ الطبيعى هى كل ما بقى من هذا الفيض العظيم من المؤلفات . أما كيف استطاع أن يفعل هذا كله فى خمس وثلاثين سنة فيفسره خطاب كتبه ابن أخيه يقول فيه :

لقد كان سريع الفهم ، متحمساً حماسة لا تكاد يصدقها العقل ، وله قدرة على ترك النوم منقطعة النظير . كان يستيقظ من نومه فى منتصف الليل أو فى الساعة الواحدة صباحاً . ولم يحدث قط أن ظل نائما إلى ما بعد الساعة الثانية ، ثم يبدأ عمله الأدبى . . . وقبل أن يطلع النهار يمثل بين يدى قسبازيان ، وكان هو أيضاً يختار ذلك الوقت لتصريف شئون الدولة . فإذا انتهى من الأعمال التى عهدها إليه الإمبراطور عاد إلى منزله وواصل الدرس . وكان يتناول فى الظهيرة . . . وجبة خفيفة لا تستغرق إلا القليل من

الوقت ، فإذا كان الفصل صيفاً ... فإنه كثيراً ما يستريح قليلا فى الشمس ؛ ولكنه كان فى أثناء ذلك يستمع إلى كتاب يقرأ له ، ويقتبس منه بعض عبارات ، ويكتب عنه بعض مذكرات . . . وتلك كانت عادته فى كل ما يقرأ . وكان بعد هذا يستحم عادة بالماء البارد ، ويتناول بعض المرطبات الخفيفة ، ويستريح قليلا ، ثم يواصل الدرس حتى موعد العشاء ، كأنه يبدأ يوماً جديداً . وفى أثناء العشاء يقرأ له كتاب آخر يكتب عنه مذكرات ... تلك كانت خطته فى الحياة وسط ضجيج المدينة وصخبها أما فى الريف فكان يقضى وقته كله فى الدرس اللهم إلا حين كان يستحم فعلا . وحتى فى الوقت الذى كان يدلك فيه جسمه ويجفف كان يستمع فيه إلى كتاب يقرأ له أو يملى هو شيئاً من عنده . وكان يرافقه فى أسفاره على الدوام كاتب ملم بطريقة الاختزال يجلس معه فى عربته أو فى هودجه . . . وقد لامنى فى يوم من الأيام على المشى وقال لى : « لم يكن لك أن تضيع هذه الساعات » لأنه كان يرى أن كل وقت لا يصرف فى الدرس وقت ضائع(٦٦) :

وكتابه هذا فى جملته وتفصيله دائرة معارف كتبها رجل واحد ، وجمع فيها خلاصة علم زمانه وأخطائه . وفى ذلك يقول : « إن الغرض الذى أرمى إليه هو أن أعرض وصفاً عاما لكل ما نعرف أنه موجود على سطح الأرض »(٦٧) . فهو يبحث فى عشرين ألف موضوع ويعتذر عما تركه من الموضوعات الأخرى ، ويشير فى هذا الكتاب إلى الفى مجلد كتبها ٤٧٣ مؤلفاً ، ويعترف بدينه إلى من رجع إليهم من الكتاب ويذكر أسماءهم جميعاً بصراحة لا نظير لها فى الأدب القديم ، ويشير عرضاً إلى أنه وجد أن كثيراً من المؤلفين نقلوا أقوال من سبقوهم بنصها دون أن يعترفوا بهذا النقل . أما أسلوب الكتاب فثقيل ممل وإن كان منمقاً فى بعض المواضع ؛ ولكننا ليس من حقنا أن ننتظر أن تكون دوائر المعارف جذابة الأسلوب ساحرته .

ويبدأ پلنى بالكفر بالآلهة ، ويظن أنها لا تعدو أن تكون ظواهر طبيعية ، أو كواكب سيارة ، أو خدمات جسدت وألهت : والإله الأوحد فى رأيه هو الطبيعة ، أى مجموع القوى التى فى الكون ، ويلوح أن هذا الإله لا يعنى عناية خاصة بالشئون الدنيوية(٦٨) . ويرفض پلنى فى تواضع أن يقيس الكون ، وليس ما يورده من معلومات فلكية إلا خليطا من السخافات والمستحيلات (كقوله « إن الشمس فى أيام الحرب التى شبت بين أكتافيان وأنطونيوس ظلت قاتمة ما يقرب من عام كامل »(٦٩)) ، ولكنه يشير إلى الشفق القطبى ويقدر الزمن الذى يستغرقه كل من المريخ ، والمشترى ، وزحل فى دورته بسنتين واثنتى عشرة سنة وثلاثين سنة على التعاقب ، ويورد بعض البراهين على كرية الأرض(٧١) . ويحدثنا عن جزائر خرجت من قاع البحر الأبيض المتوسط فى أيامه ، ويظن أن صقلية وإيطاليا ؛ وپوشيا وعويبة ؛ وقبرص وسوريا قد انفصلت كل واحدة من الثانية بفعل مياه البحر على مدى الأحقاب الطوال(٧٢) . ويتحدث عن أعمال التعدين الشاقة المذلة ويذكر فى ألم وحسرة أن « كثيراً من الأيدى تبلى لكى يزين مفصل صغير »(٧٣) ، ويتمنى أن لو كان الناس لم يعثروا على الحديد ، لأنه جعل الحرب أشد هولا مما كانت عليه قبل أن يعثروا عليه ، « كأننا أردنا أن نعجل بموت الناس ، فجعلنا للحديد أجنحة وعلمناه الطيران »(٧٤) — وهو يشير بقوله هذا إلى القذائف الحديدية التى تجهز بريش من الجلد يساعدنا على الاحتفاظ بخط سيرها . ويذكر كما يذكر ثيوفراستس Theophrastus تحت اسم انتراسيت Anthracitis « حجراً يحترق »(٧٥) ، ولكنه لا يذكر عن الفحم شيئاً غير هذا . ويشير إلى نوع من « الكتان لا يحترق » يطلق عليه اليونان اسم أزبستنون Asbestinon « ويستخدم فى تحنيط جثث الملوك » ، ويصف كثيراً من الحيوانات ويوزد قوائم بأسمـــاء حيوانات أخرى ، ويمتدح ذكاءها ، ويذكر الطريقة التى يستطاع بها التحكم فى نســـلها ، فنجعلها ذكوراً

طبقاً لإرادتنا : « فإذا أردت أن تكون صغارها إناثاً فلتول الأم وجهها نحو الشمال فى أثناء الوثب »(٧٦) . وله اثنا عشر كتاباً عجيباً فى الطب ، أى فى القيمة العلاجة لمختلف المعادن والنباتات ، فالكتب المرقومة من ٢٠ إلى ٢٥ كلها فى النباتات الرومانية ، التى انتقلت من العصور الوسطى إلى العصور الحديثة ، وأضحت بداية المعلومات النباتية فى الطب الحديث . وعنده علاج لكل شىء من السُّكْر والبَخَر إلى « آلام العنق »(٧٨) . ويصف بعض منبهات الغريزة الجنسية(٧٩). ويحذر النساء من العطس بعد الجماع خشية أن يجهضن لساعتهن ، قبل أن يقمن من مقامهن(٨٠). ويصف الجماع علاجا للتعب ، وبحة الصوت ، وآلام الحقوين ، وضعف البصر ، والاكتئاب ، « واختلال القوى العقلية(٨١) .

وقصارى القول أن فى هذا الكتاب دواء لكل داء ، وأنه من هذه الناحية يضارع ما قاله الأسقف بيركلى فى فوائد ماء القطران ، ولكننا نجد وسط هذا الهراء كثيراً من المعلومات النافعة وخاصة ما كان منها متصلا بالصناعات القديمة والأخلاق والعقاقير ، وفيه إشارات طريفة لعقيدة التأسل فى الوراثة Atavism(*) وإلى الزيت المعدنى ، وإلى تغير الشخص بعد مولده من ذكر إلى أنثى أو العكس .

ويحدثنا مسيانس Muscianus أنه رأى فى أرجوس Argos يوما من الأيام شخصاً كان يسمى وقتئذ أرسكون Arescon ، ولكنه كان يسمى قبل أرسكوزا Arescusa ؛ وأن هذا الشخص تزوج من قبل برجل ، ولكنه لم يلبث أن نبتت له لحية ، وبعض خصائص الذكران الأخرى ، وأنه اتخذ لنفسه بعدئذ زوجة »(٨٢) . ونجد فى مواضع متفرقة من الكتاب بعض إشارات قيمة . من ذلك أن هلمى Hılmy (١٨٠٠) حين قرأ فى كتاب بلنى فقرة(٨٣) عن استخدام عصير اللبين (Anagalis) قبل عملية الكنركتا (إظلام العين)(٨٤) حمله ذلك على أن يبحث عن مفعول

(*) ويقصد بها الوراثة التى تتخطى بعض طبقات وتظهر فيما بعدها أو العودة إلى الجد الأكبر وتسمى احيانا « الرجعة » . (المترجم)

نباتى السكران Jusquiamus ، و « ست الحسن » Belladonna فى إنسان العين . وفى الكتاب أيضاً فصول قيمة عن التصوير والنحت تعد أقدم وأهم ما وصل إلينا من وصف الفن القديم .

ولم يقنع پلنى بدراسة التاريخ الطبيعى ، بل آراد بعد ذلك أن يكون فيلسوفاً ، ولذلك تراه ينثر فى جميع صحف كتابه معلومات عن الآدميين ، ويرى أن حياة الحيوان أفضل من حياة الإنسان لأنها « لا تفكر قط فى المجد أو المال أو المطامع أو الموت »(٨٥) ، ولأن فى وسعها أن تتعلم دون حاجة إلى معلم ، وأنها لا تضطر إلى ارتداء الملابس ، ولا تشن الحرب على أبناء جنسها . وهو يقول إن اختراع النقود كان ضربة قاضية على سعادة بنى الإنسان ، فهى التى أوجدت الربا ، وبه استطاع بعض الناس أن يعيشوا من كد غيرهم ، دون أن يقوموا بعمل ما »(٨٧) . وكانت نتيجة ذلك أن وجدت الضياع الواسعة التى يمتلكها الكبراء الغائبون عنها ، وأن حلت المراعى محل الزراعة ، فجر ذلك على الأهلين الخراب والدمار . ويقول پلنى إن الحياة تجلب للإنسان من الحزن والألم أكثر مما تجلبه من السعادة ، وإن الموت هو النعمة الكبرى(٨٨) ، وأن ليس شىء قط وراء الموت .

وكتاب **التاريخ الطبيعى** أثر خالد بجهل الرومان ، ففيه يجمع پلنى الخرافات والتنبؤات ، ورقى الحب ، والعلاج بالسحر ، ويجدّ فى جمعها كجده فى غيرها من المعلومات . ويلوح أنه يؤمن بمعظمها ، فهو يظن مثلا أن فى مقدور الإنسان — وخاصة إذا كان صائما — أن يقتل الأفعى إذا بصق فى فمها(٨٩) . « ومن المعروف جيداً أن إناث الخيل تحمل فى لوزتانيا Lusitania بفعل ريح الشمال(٩١) . وهى مسألة غفل عنها شلى Shelley فى أغنيته ويندد پلنى بالسحر ولكنه يقول لنا إنه « إذا أقبلت المرأة الحائض حمض عصير العنب وفسدت البذور التى تلمسها فلا تنبت ، وسقطت الثمار من الشجرة

التى نجلس تحتها ؛ وإذا نظرت إلى الصلب تثلم حده ، وإلى العاج ذهب لمعانه وصقله ؛ وإذا سقطت على ثول من النحل مات من فوره »(٩٢) . وهو لا يؤمن بالتنجيم ولكنه يملأ صفحات من كتابه بالحوادث « المنذرة » المستمدة من مظاهر الشمس والقمر(٩٣) . كقوله : « حدث فى عهد قنصلية م . أسليوس M. Acilius وفى عهود أخرى كثيرة أن أمطرت السماء لبناً ودماً »(٩٤) ، وإذا ما ذكرنا أن هذا الكتاب هو وكتاب المسائل لسنكا أهم ما خلفه الرومان للعصور الوسطى من علم التاريخ الطبيعى ، ثم فاضلنا بينهما وبين ما يماثلهما من كتب أرسطو وثيوفراسطس وبين عقلية هذين الرجلين وقد عاشا قبل عهد پلنى وسنكا بأربعمائة عام ، إذا ما فعلنا ذلك بدأنا نشعر بالمأساة المروعة مأساة موت الثقافة موتاً بطيئاً . لقد فتح الرومان العالم اليونانى ، ولكنهم خسروا قبل فتحه أثمن تراث هذا العالم .

الفصل السادس

الطب عند الرومان

أما فى الطب فكانوا خيراً منهم فى التاريخ الطبيعى . فلقد أخذوا علم الطب أيضاً عن اليونان ، ولكنهم أحسنوا صياغته ، وتنظيمه ، وطبقوه على الصحة العامة والخاصة . لقد كانت رومة تحيط بها من جميع جهاتها تقريباً مناقع واسعة ، وكانت معرضة للفيضانات الوبائية ، فكانت لذلك فى أشد الحاجة إلى العناية بالصحة العامة ، فنحن نسمع أن الملاريا كانت منتشرة فى رومة فى القرن الثانى قبل الميلاد ، وأن بعوضة الأنوفيل كانت فى ذلك الوقت مستقرة فى مناقع پنتين Pontine (٩٥) . وانتشر داء النقرس بانتشار الترف ، وفى ذلك يحدثنا پلنى الأصغر أن صديقه كورليوس روفس Corellius Rufus ظل يعانى آلامه من السنة الثالثة والثلاثين إلى السابعة والستين قبل أن ينتحر بعد أن استمتع بلذة البقاء حياً يوماً واحداً بعد موت « ذلك اللص دومتيان»(٩٦) : وتدل بعض الفقرات فى كتابات الهجائين الرومان على ظهور الزهرى فى القرن الأول بعد الميلاد(٩٧) . واجتاحت الأوبئة الفتاكة إيطاليا الوسطى فى عام ٢٣ ق . م وفى أعوام ٦٥ ، ٧٩ ، ١٦٦ ميلادية .

وكان الناس من أقدم الأزمنة يحاولون التغلب على المرض والطاعون بالسحر والصلوات ، وحتى فى الوقت الذى نتحدث عنه طلبوا إلى قسبازيان المتشكك اللين الجانب أن يداوى عماهم ببصاقه ، وعرجهم بمس قدمه(٩٨) . وكانوا يحملون مرضاهم وقرابينهم إلى هيكلى إيسكلپيوس Aesculapius ومنيرڤا ، وكان الكثيرون منهم يتركون فيهما الهدايا شكراً على نعمة الشفاء . فلما أن حل القرن الأول قبل الميلاد أخذت عنايتهم بالطب الدنيوى تزداد شيئاً فشيئا . ولم تكن الدولة فى ذلك الوقت

قد وضعت نظاماً لممارسة مهنة الطب ، فكان الحذاؤون ، والحلاقون ، والنجارون يمارسونها مع مهنهم الأصلية إذا شاءوا ، ويستعينون بالسحر ، ويخلطون عقاقيرهم بأنفسهم ويبيعونها للناس(٩٩) . ولم تخل تلك الأيام من التقريع والشكاوى المألوفة . وقد كرر پلنى تنديده بأطباء اليونان الذين « يغوون زوجاتنا ، ويجمعون الثروات الطائلة بتسميمنا ويتعلمون بتعذيبنا ويتدربون بقتلنا »(١٠٠) . واشترك پترونيومس ، ومارتيال ، وچوڤنال فى هذا الهجوم العنيف ، وبعد قرن من ذلك الوقت نرى لوسيان يندد بعجز من يمارسون مهنة الطب ، والذين يخفون هذا العجز بجمال أجهزتهم وأدواتهم(١٠١) .

وفتحت فى عهد ڤسپازيان *مستمعات* Auditoria لتعليم الطب يتولى التعلم فيها أساتذة تعترف بهم الدولة وتؤدى إليهم راتبهم ، وكانت اللغة اليونانية لغة التعليم فى هذه المعاهد كما أن اللغة اللاتينية هى اللغة التى تكتب بها تذاكر الدواء هذه الأيام ، وللسبب عينه — وهو أن اللغة اليونانية كانت وقتئذ اللغة التى يفهمها أصحاب اللغات المختلفة . وكان يطلق على خريجى هذه المعاهد اسم *أطباء الجمهورية* ، وكانوا هم وحدهم الذين يستطيعون ممارسة صناعة الطب بصفة قانونية فى رومة بعد عهد ڤسپازيان(١٠٣) . ونص فى قانون أكويليا Les Aquilia على أن تشرف الدولة على الأطباء ، كما نص فيه على وجوب تحملهم تبعة إهمالهم . وكان قانون كرنليا Les Cornelia يفرض أشد العقوبات على من يتسببون فى موت المرضى بسبب إهمالهم أو خطئهم الناشئ من جهلهم بأعمالهم(١٠٤) . ومع هذا فإن الدجالين ظلوا يمارسون دجلهم ، ولكن عدد الأطباء المتعلمين ظل يزداد شيئاً فشيئاً . وكانت كثرة الرومان ممن أخرجتهم القابلات إلى هذا العالم ، ولكن هاته النسوة كن مدربات على عملهن أحسن تدريب(١٠٥) . وقد وصل الطب العسكرى فى عام ١٠٠ م إلى أرقى ما وصل إليه فى الزمن القديم : فكان فى كل فيلق أربعة وعشرون جراحاً ، كما كان له هيئة للإسعاف الأولى

ونقالات ميدان منظمة أحسن تنظيم ، وكان بالقرب من كل معسكر هام مستشفى عسكرى(١٠٦) . وافتتح الأطباء مستشفيات خاصة ، Valetudinaria ، كانت هى التى تطورت منها المستشفيات العامة فى العصور الوسطى . وكانت الدولة تعين الأطباء لمعالجة الفقراء مجاناً وتؤدى لهم أجورهم(١٠٧) ، أما الأغنياء فكان لهم أطباؤهم الخصوصيون وكان «رؤساء المداوين Archiarti » يعنون بالإمبراطور وأسرته ، وخدمه وأعوانه ، وتؤدى لهم على ذلك أجور طيبة . وكانت بعض الأسر تتعاقد أحياناً مع بعض الأطباء على أن يعنوا بصحتها ويداووها من أمراضها مدة معينة ، وكان كونتس استرتنيوس يكسب بهذه الطريقة ٦٠٠ر٠٠٠ سسترس فى العام(١٠٨) . وأدى الجراح الكون Alcon الغرامة التى فرضها عليه كلوديوس ومقدارها ١٠ر٠٠٠ر٠٠٠ سسترس من أجوره فى بضع سنين(١٠٩) .

وبلغت مهنة الطب فى ذلك الوقت درجة عظيمة من التخصص ، فكان فى البلاد إخصائيون فى المجارى البولية ، وفى أمراض النساء ، وكان فيها أطباء مولدون وأطباء رمديون ، وإخصائيون فى أمراض العين والأذن ، وأطباء بيطريون . وجراحو أسنان . وكان فى وسع الرومان أن تكون لهم أسنان صناعية من ذهب ، وأسنان مرتبطة بأسلاك ، وكبارى وأسنان ذات قشرة(١١٠) ذهبية . وكان لديهم عدد كبير من الطبيبات ، وقد كتبت الكثيرات منهن كتباً فى الإجهاض كانت واسعة الانتشار بين سيدات الطبقات الراقية وبين العاهرات . وكان الجراحون يتخصصون فى فروع الجراحة المختلفة وقلما كان يوجد جراح غير متخصص فى فرع خاص . وكان عصير اليروح(*) (المندراغورا) والأنروبين يستعملان فى التخدير(١١١) ، وقد وجدت فى خرائب بمبي أكثر من مائتى أداة جراحية مختلفة . وكان تشريح جثث الآدميين عملا غير مشروع ولكنهم كانوا يستعيضون عن ذلك بالفحص عن أجسام المجالدين المجروحين أو المحتضرين .

(*) جنس من النباتات الباذنجانية فى العالم القديم . (المترجم)

وكان العلاج بمياه العيون واسع الانتشار وكانت العيون الحارة الكبرى معاهد للعلاج والاستشفاء . وقد جمع شارميس Charmis المرسيلى ثروة طائلة بإدارة حمامات باردة . وكان المصابون بالسل يرسلون إلى مصر أو شمالى إفريقية . وكان الكبريت يستخدم لعلاج الأمراض الجلدية ولتبخير الحجرات بعد انتشار الأمراض المعدية(١١٢) . وكانت العقاقير آخر ما يلجأ إليه الناس من وسائل العلاج ، ولكنهم كانوا يلجأون إليها فى كثير من الحالات ، وكان الأطباء يصنعونها بأنفسهم بطرق يحتفظون بسريتها ولا يطلعون الجماهير عليها ، ويبيعونها بأغلى الأثمان التى يطيقها المرضى(١١٣) . وكانت العقاقير الكريهة ذات منزلة كبيرة ، فكانت فضلات العظاية تستخدم مسهلات ، وكانت أحشاء الآدميين توصف أحياناً ؛ وقد وصف أنطونيوس موسى براز الكلاب لعلاج مرض الذبحة ، واستخدم جالينوس براز الغلمان لعلاج أورام الحلق(١١٤) . وفى مقابل هذه الأدوية الكريهة عرض أحد الدجالين المرحين أن يداوى بالخمر كل داء تقريباً(١١٥) .

وليس بينَ الكتاب المعروفين فى علم الطب فى ذلك العهد كاتب من أصل رومانى إلا واحداً فقط ، وحتى هذا الكاتب لم يكن طبيباً . لقد كان أورليوس كرنليوس سلسس Aurelius Cornelius Celsus من أبناء الأشراف ، جمع حوالى عام ٥٠ م فى دائرة معارف كل ما درسه عن الزراعة ، والحرب ، والخطابة ، والقانون ، والفلسفة ، والطب . وقد ضاع كل ما كتبه إلا القسم الخاص بالطب ، ويعد كتابه فى هذا العلم أعظم مؤلف فيه وصل إلينا من القرون الستة المحصورة بين أبقراط وجالينوس ، ويمتاز فوق هذا بأنه كتب بلغة لاتينية فصحي نقية لقب سلسس من أجلها **بشيشرون الطب** . ولقد ظلت الأسماء اللاتينية التي ترجم بها المصطلحات الطبية اليونانية تسيطر على علم الطب من ذلك الوقت إلى أيامنا هذه . ويدل الكتاب السادس من كتبه على علم بالأمراض السرية يعد فى ذلك العهد القديم علماً واسعاً غزيراً . ويصف الكتاب السابع فى جلاء ووضوح بعض

الجراحات ، ويحتوى أقدم وصف معروف للأربطة ، ويصف عملية قطع اللوز ، واستخراج حصاة المثانة بشق الجنب ، وجراحة الترقيع ، وعمليات إظلام عدسة العين (الكتاركتا) . وهذا الكتاب فى مجموعه هو خير ما ألف فى الآداب العلمية الرومانية ، وإنه ليوحى إلينا بأنه لو لم يبق الدهر على كتاب بلنى لكان تقديرنا للعلوم عند الرومان أعلى منه فى الوقت الحاضر ومما يؤسف له أن العلماء قد أجمعوا على أن كتاب سلسس ليس فى أكثر أجزائه إلا جمعاً أو شرحا للنصوص اليونانية القديمة(١١٦) . وقد فقد هذا الكتاب فى العصور الوسطى ، ثم عثر عليه مرة أخرى فى القرن الخامس عشر ، وأعيد طبعه قبل أن يطبع كتاب أبقراط أو جالينوس ، وكان له شأن أيما شأن فى إحياء علم الطب فى العصر الحديث .

الفصل السابع

كونتليان

لما أنشأ ڤسپازيان كرسيا رسميا للبلاغة فى رومة عين فى هذا المنصب رجلا من أصل أسپانى ، وكان كثير من المؤلفين فى العصر الفضى من أبناء تلك البلاد . وقد ولد ماركس فابيوس كونتليانس Marcus Fabius Quintilianus فى كلاچوريس Calagurris (عام ٥٣ ؟ م) ثم رحل إلى رومة ليدرس فن الخطابة وافتتح مدرسة لتدريس البلاغة كان من بين طلابها تاستس وپلنى الأصغر . ويصفه چوڤنال بأنه كان فى أيام شبابه وسيما ، نبيلا ، حكيما ، حسن التربية ، ذا صوت رخيم ، ولقاء جميل ، ومهابة كمهابة أعضاء مجلس الشيوخ . وآثر العزلة فى شيخوخته ليكتب كتاباً يرشد فيه ولده إلى الطريقة المثلى لمعالجة فن الخطابة ، واسم هذا الكتاب Institutio Oratoria[٩٦] « ظننت أن هذا الكتاب سوف يكون أثمن ما يرثه ولدى ، وقد أظهر من الكفاية النادرة العجيبة ما أوجب على أبيه أن يحرص الحرص كله على تثقيفه . . . وقد واصلت الليل بالنهار سعياً وراء هذه الغاية ، وعجلت بإتمامها خشية أن ينصرم أجلى فيحول الموت بينى وبين إتمام هذا الواجب . ثم حلت بى الكارثة فجأة فأضحى نجاحى فى عملى لايهم إنساناً آخر أقل مما يهمنى أنا نفسى . . . ذلك أنى فقدت من كان معقد آمالى ومن كنت أرجو أن يكون سلوة لى فى شيخوختى[١١٧] » .

وكانت زوجته قد توفيت فى سن التاسعة عشرة ، وخلفت ولدين ، توفى أحدهما فى سن الخامسة « وكأننى قد فقدت بفقده إحدى عينى » ، والآن يختطف الموت ولده الثانى ويترك المعلم الشيخ « يعانى ألم فراق أقرب الناس إليه وأعزهم عليه » .

وهو يعرف البلاغة بأنها العلم الذى يؤدى إلى حسن الكلام ، ويقول إن تدريب الخطيب يجب أن يبدأ قبل مولده ، إذ يحسن أن يولد لأبوين متعلمين ، حتى يتنفس الكلام الصحيح والأخلاق الطيبة من الهواء الذى يستنشقه ، ذلك أنه من المستحيل أن يصبح الإنسان متعلماً ومهذباً معاً فى جيل واجد . ويجب على من يريد أن يكون خطيباً أن يدرس الموسيقى ، حتى يستطيع تمييز الأصوات المتناسقة المتناغمة ؛ كما يجب عليه أن يتعلم الرقص ليكتسب الرشاقة والاتزان ، والتمثيل لكى يبعث الحياة فى خطبه بما يبثه فيها من حركات اليدين والجسم ؛ والألعاب الرياضية ليستطيع الاحتفاظ بصحته وقوته ؛ والأدب ليصلح به أسلوبه ويدرب به ذاكرته ، ويمده بكنز من الآراء العظيمة ؛ والعلوم لكى يدرك بها أسرار الطبيعة ؛ والفلسفة لكى يصوغ نفسه حسبما يمليه عليه العقل ونصائح الحكماء . وذلك لأن كل إعداد سيذهب أدراج الرياح إذا خلا من استقامة الخلق وسمو الروح وهما اللذان لاغنى عنهما لوجود الإخلاص فى الحديث ، وهو قوة لا يمكن قط أن تقاوم . وعلى الطالب بعد ذلك أن يكتب أكثر ما يستطيع وأن يبذل فى كتابته أقصى ما فى وسعه من العناية . ويقول كونتليان : إن هذا تدريب شاق « ويقينى أن أحداً من قرائى لن يفكر قط فى احتساب قيمته المالية(١١٨) » .

وللخطابة فى رأيه خمسة أوجه : التفكير ، والتنظيم ، والأسلوب ، والذاكرة ، والإلقاء . فإذا ما اختار الخطيب موضوعه ، وحدد غرضه بوضوح ، وجب عليه بعـــدئذ أن يجمع مادته بالمشاهدة والبحث ، ومن الكتب ؛ فإذا تم له ذلك وجب عليه أن ينظمه تنظيما منطقيا ونفسانياً حتى يكون كل جزء منه فى موضعه الصحيح مؤدياً إلى ما بعـــده أداء طبيعياً كأنه جزء من برهان نظرية هندسية(١١٩) . وكل خطبة حسنة التنظيم تتألف من مقدمة (exordium) ، وقضية ، وبرهان ، ودحض ، وختام ؛ ويجب ألا تكتب الخطبة كلها إلا إذا

أريد حفظها بأجمعها عن ظهر قلب ، أما حفظ بعض الأجزاء المكتوبة دون البعض الآخر فإنه يفسد الأسلوب الارتجالى ويعوقه ، وإذا كتبت الخطبة فلتكتب بعناية « فإذا أسرعت فى الكتابة ، فإنك لن تحسنها أبداً ، وإذا أحسنت الكتابة فإنك لن تلبث أن تكتب بسرعة » ؛ تجنب « ترف الإملاء الذى أخذ ينتشر بين الكتاب فى هذه الأيام »(١٢٠) ، والذى يدل على التهاون والكسل ، « والوضوح ألزم الأشياء للخطب ، ثم يليه الإيجاز والجمال والقوة . وعليك أن تصحح أخطاءك المرة بعد المرة ولا تبال بما يصيبك فى هذا من عنت .

« وليس المحو بأقل أهمية من الكتابة ، امح كل ما لا ضرورة له ، واسم بكل ما هو عادى ورتب ما تراه مضطربا ، واجعل العبارات متزنة إذا ما وجدتها خشنة غير رقيقة ، وخففها إذا وجدتها دسمة أكثر مما يجب ... وخير طريقة للإصلاح أن يغفل الإنسان ما كتبه بعض الوقت ، حتى إذا عاد إليه بعدئذ بدا عليه مظهر الجدة ، كأنه من عمل إنسان آخر ؛ وبهذه الطريقة لا يكلف الإنسان بكتابته كلفه بطفله الحديث الولادة(١٢١) .

ويجب أن يضرب الإلقاء والكتابة على أوتار العواطف والقلوب ، ولكن عليك ألا تسرف فى الحركات والإشارات ، لأننا « لا نكون بلغاء إلا بالوجدان وقوة الخيال » . أما إذا « صرخت ، وخُرت ، ورفعت يدك ، ولهثت ، وهززت رأسك ، وصفقت بيديك ، وضربت فخذك وصدرك وجبهتك ، فإنك ستهوى من فورك إلى قلوب أحط من يستمعون إليك(١٢٢) » .

ويضيف كونتليان فى كتابه الثانى عشر إلى هذه النصائح القيمة خير نقد أدبى بقى لدينا من أيام الأقدمين ، فهو يدلى بدلوه ، وهو أشد ما يكون حماسة ، فى ذلك الصراع القديم والحديث بين القدامى والمحدثين ؛ ويجد الحقيقة تتأرجح فى الوسط بين هؤلاء وهؤلاء ؛ وهو لا يرغب كما يرغب فرنتو Franto فى أن يعود إلى البساطة والخشونة اللتين ينادى بهما كاتو وإنيوس ؛

ولكنه أقل من ذلك رغبة فى أن يجرفه أسلوب سنكا « الفخم المتكلف » ، ويرى أن يكون المثل الذى يجب على طالب البلاغة أن يحتذيه هو أسلوب شيشرون فى خطبه القوية المهذبة ، ويقول : إن شيشرون هو الكاتب الرومانى الوحيد الذى فاق اليونان فى مجال الخطابة(١٢٣) . أما أسلوب كونتليان نفسه فهو فى كثير من المواضع أسلوب المدرس ، تخنقه التعاريف ، والتصانيف ، وتحديد الفروق ، ولا يرقى إلى مستوى عال من البلاغة إلا حين يطعن على سنكا ؛ ولكنه مع ذلك أسلوب قوى يخفف من جلاله حيناً بعد حين قليل من الفكاهة ومن العطف على الإنسانية ، ويحس الإنسان على الدوام أن وراء معنى الألفاظ الجميل طيبة الرجل الهادئة ، وإن قراءته لحافز قوى إلى الخلق الطيب الكريم . ولعل الرومان الذين أسعدهم الحظ بالاستماع له قد أخذوا عنه بعض ذلك التجديد الخلقى الذى سما بعصر بلنى الأصغر وتاستس أكثر مما سما به الأدب الرفيع .

الفصل الثامن

استاتيوس ومارتيال

لقد استبقينا إلى آخر هذا الباب شاعرين عاشا فى وقت واحد ، وسعيا للحظوة لدى إمبراطور واحد وأنصار بعينهم ، ومع ذلك فكلاهما لا يذكر اسم الآخر : وكان أحدهما أعف شاعر فى تاريخ روما الإمبراطورية كما كان الآخر أفحش شاعر فيه . فأما أولهما فهو پبليوس پاپنيوس استاتيوس Publius Papinius Statius وهو ابن شاعر ونحوى من مدينة ناپلى . وقد هيأت له بيئته وتربيته كل شىء يطمع فيه عدا المال والعبقرية . فكان يعانى قرض الشعر ، ويفاجئ الندوات بما يرتجله منه ، وكتب منه ملحمة تدعى الطيبية Thebaid فى حرب السبع المدن ضد طيبة . ولسنا نستطيع قراءتها فى هذه الأيام لأن أبياتها تزدحم بأسماء الآلهة الموتى ، ولأن الإنسان لا يطيق ما لأشعارها السلسة من قدرة على التخدير ؛ ولكن معاصريه كانوا يغرمون بها ، وكانت الجموع تهرع لتستمع إليه وهو ينشدها فى أحد ملاهى مدينة ناپلى ؛ وكانوا يفهمون ما تحتويه من أساطير ويعجبون برقة إحساساته ، ويجدون أشعاره تجرى سهلة على ألسنتهم ، وقد منحه المحكمون فى مباريات الشعر فى أولبان الجائزة الأولى ، وكان الأثرياء يخطبون وده ويعينونه على التخلص من فقره(١٢٤) ، ودعاه دومتيان Domitian نفسه فى قبة فلاڤيا Flavia وجازاه استاتيوس على فعله هذا بأن شبه القصر بالجنة والإمبراطور بالإله .

ووجه استاتيوس ألطف قصائده وأبعثها للسرور إلى دومتيان وغيره من نصرائه . وكانت هذه القصيدة وهى قصيدة سلڤا Silva تشتمل على طائفة من المدح ومن أناشيد الرعاة فى شعر خفيف ظريف فى الدرجة الوسطى من الجودة . على أنه لم يكسب الجائزة الأولى فى مباريات الكپتولين بل نالها

شاعر آخر . وأخذ نجمه فى الأفول فى رومة المتقلبة ، فما كان منه إلا أن أقنع زوجته بمغادرة المدينة والعودة معه إلى البلد الذى قضى فيه حداثته . وفى نابلى شرع يكتب ملحمة أخرى هى الأخيلية Achelleid ولكن المنية فاجأته فى عام ٩٦ فتوفى ولما يتجاوز الخامسة والثلاثين من عمره . ولم يكن استاتيوس شاعراً عظيما ولكنه كان يضرب على نغمة من الرأفة والحنان محببة إلى النفوس فى وسط أدب كثيراً ما تغلب عليه السخرية والحقد المرير ، وفى مجتمع بلغ من الفساد والفحش درجة لم يكن لها من قبل مثيل ، ولو أنه بلغ من الدناءة ما بلغه مارتيال لكان خليقاً بأن ينال ما ناله من الشهرة .

وولد ماركس ڤليريوس مارتيالس فى بلبليس من أعمال أسپانيا فى السنة الأربعين بعد الميلاد ، ولما بلغ الرابعة والعشرين من عمره جاء إلى رومة وعقد أواصر الصداقة مع لوكاس وسنكا ، وأشار عليه كونتليان أن يتخذ المحاماة وسيلته للثراء ، ولكنه فضل عليها الشعر مع الإملاق . وأطاحت مؤامرة بيزا فجاءة بأصدقائه فاضطر إلى توجيه قصائده للموسرين الذين يستطيعون أن يطعموه إذا قال لهم نكتة شعرية . وكان يسكن فى علية فى الطابق الثالث ، وأكثر الظن أنه كان يعيش فيها وحيداً ؛ نقول هذا لأنه وإن كان يوجه قصيدتين من قصائده لامرأة يقول عنها إنها زوجته فإن ما فى القصيدتين من فحش لا يترك مجالا للشك فى أن هذه المرأة إما أن تكون اختراعا من عنده وإما أن تكون قوادة(١٢٦) .

وهو يخبرنا بأن قصائده كانت تقرأ فى جميع أنحاء أوربا لا يستثنى منها القوط أنفسهم . وهو يغتبط إذ يعلم أنه اشتهر فيها شهرة جواد السباق ، ولكنه كان يؤلمه أن يرى الناشر الذى يبيع كتبه يجمع الثروة الطائلة ، وأنه هو لا يجنى منها شيئاً . وأشار مرة فى إحدى قصائده إلى أنه فى أشد الحاجة إلى جبة رومانية ، فلما أرسلها إليه پارثنيوس الثرى معشوق الإمبراطور رد عليه بمقطوعتين مدح فى إحداهما جدة الجبة وندد فى الثانية بحقارتها ورخص ثمنها . على أنه عثر بعد

قليل على نصراء أكرم من پارثنيوس وأكثر منه سخاء أهدى إليه أحدهم ضيعة صغيرة فى نومنتم Nomentum ، واستطاع بطريقة ما أن يجمع مالا يكفى لشراء منزل بسيط على تل الكوزينال Quirinal . وصار من ذلك الوقت يضع نفسه تحت رعاية عظيم بعد عظيم ، يقوم بخدمتهم فى الصباح ، ويتلقى منهم الحدايا فى بعض الأحيان ؛ لكنه ما لبث أن أحس بحطة منزلته هذه ، وأخذ يتحسر لأنه لم يؤت من الشجاعة ما يجعله يقنع بفقره فيحرر نفسه من ذل التبعية(١٢٧) . غير أنه لم يكن فى وسعه أن يعيش فقيراً لأنه كان مضطراً إلى الاختلاط بمن يستطيعون أن يكافئوه على شعره فأخذ يبعث لدومتيان بالقصيدة تلو القصيدة يمدحه فيها ويمجده ، ويقول إنه لو دعاه چوبتر ودومتيان إلى الطعام فى يوم واحد لرفض دعوة الإله وأجاب دعوة دومتيان ؛ ولكن الإمبراطور كان يفضل عليه استاتيوس فدبت الغيرة من الشاعر الشاب فى قلب مارتيال ، وقال فى إحدى قصائده : إن نكتة حية أغلى قيمة من ملحمة ميتة(١٢٨) .

وكانت القصائد الموجزة ذات النكت مما يقال فى كل موضوع سواء كان إهداء ، أو تحية ، أو قبرية ، ولكن مارتيال هذبها فجعلها أقصر وأعظم حدة مما كانت ، وأضاف إليها الكثير من الهجاء اللاذع . وإنا لنظلمه إذا قرأنا قصائده ذات النكت البالغ عددها ١٥١٦ قصيدة فى جلسات قليلة ، فلقد صدرت هذه القصائد فى اثنى عشر كتابا فى أوقات مختلفة ، ولم يكن ينتظر من القارئ أن يلتهمها كما يلتهم طعام الوليمة ، بل كان ينتظر منه أن يتناولها تناول المشهيات قبل الطعام . ويبدو الكثير منها غثاً تافهاً فى هذه الأيام، ذلك أن ما فيها كان خاصاً بهذين الزمان والمكان ، فكان لذلك قصير الأجل غير جدير بالبقاء . ولم يكن مارتيال نفسه يقدرها كثيراً ، ولم يكن يجادل فى أن الغث منها يزيد على الثمين ، ولكنه كان مرغما على أن يملأ بها مجلداً فى إثر مجلد(١٢٩). وهو رجل قادر على قرض الشعر ، عارف بجميع أوزانه وبجميع ما يتطلبه من حيل وأساليب ، ولكنه يتجنب

منون الخطابة ويفخر بهذا كما يفخر به بترونيوس الشريف الذى كان مقامه فى النثر يضارع مقام مارتيال فى الشعر . ولم يكن يعنى أقل عناية بالأساطير التى كانت تغص بها آداب تلك الأيام ، بل كان أكبر همه رجال ذلك العهد ونساؤه وحياتهم الخاصة ، وهو يصف هذه الحياة وصفاً ينم عن ضغن ومسرة . ويقول فى إحدى قصائده « إن صفحاتى تطالعك بالرجال »(١٣٠) ، ولقد كان فى وسعه أن « يتناول » أحد الأشراف الفظاظ ، أو الأثرياء البخلاء ، أو المحامين المزهوين ، أو الخطباء المشهورين . لكن أكثر من يحب التحدث عنهم هم الحلاقون والأساكفة ، والبائعون الجوالون ، ومدربو الخيول ، واللاعبون على الحبال ، والدلالون ، وناقعو السم ، والمفسدون والعاهرات ، وليست المناظر التى يضعها مأخوذة من بلاد اليونان القديمة بل يستمدها من الحمامات ، ودور التمثيل ، والشوارع ، والملاعب ومنازل رومة ، ومساكن فقرائها ، وقصارى القول أنه شاعر السفلة والرعاع .

وهو يعنى بالمال أكثر مما يعنى بالحب ، وإذا فكر فى الحب فإن أكثر ما يفكر فيه هو حب الرجال للرجال ، أو النساء للنساء . على أن شعره لا يخلو من العاطفة ، وهو يحدثنا فى إحدى قصائده حديثاً ملؤه الحنو والأسى على ابن صديق له عاجلته المنية ؛ ولكن كتبه كلها لا يوجد فيها بيت واحد ينم عن المروءة والشهامة ، أو عن الغضب الشريف . وهو يرتل قصائده ترتيلا تفوح منه أخبث الروائح ويقول عنها « إننى أفضل هذه الروائح الكريهة على قصائدك كلها يا بسا Bassa »(١٣١) . ويصف إحدى خليلاته بقوله :

« إن ضفائرك يا جلا Galla قد صنعت فى مكان بعيد وإنك لتخلعين أسنانك فى الليل كما تخلعين أثوابك الحريرية ، وأنت ترقدين مختزنة فى مائة برميل ، ولكن وجهك لا ينام معك ؛ وتغمزين بحاجب جىء به إليك

فى الصباح وقد تجردت من كل احترام لحيفتك البالية التى تستطيعين أن تعديها لقدمها جيفة جدة من جداتك .

وهو يتحدث فى حقد غير خليق بالرجال عن النساء اللاتى أبين أن يخضعن له ، ويلقى عليهن نكاته القذرة كما يلقى الكناس الأقذار . ويوجه أغانيه الغزلية للغلمان ، وتتملكه النشوة من عبير « قبلاتك أيها الغلام »(١٣٣) .

وقد قلد أحد شعراء الإنجليز إحدى قصائده التى قال فيها :

لا أحبك يا سبيديوس ، ولست أعرف لذلك سبباً ؛

وكل ما أستطيع أن أقوله أنى أبغضك أشد البغض .

والحق أن الذين لا يحبهم مارتيال كثيرون ويصفهم بعد أن يطلق عليهم أسماء مستعارة لا تخفى حقيقتهم وبألفاظ لا يجد الإنسان لها مثيلا إلا على جدران مراحيض المواخير(١٣٥) . ولست تجده إلا هاجياً لأعدائه كما لا تجد استاتيوس إلا مادحاً أصدقاءه . وقد أراد بعض ضحاياه أن ينتقموا لأنفسهم منه فنشروا بإمضائه قصائد أشد قذارة من قصائده الحقيقية ، أو هاجموا باسمه بعض من كان مارتيال يحرص على إرضائهم . وفى وسع الإنسان أن يؤلف من هذه النكات الشعرية التى أوفت على الغاية من الناحية الفنية معجماً كاملا يحوى أقذر ما فى اللغة من ألفاظ .

غير أن فى مقدور الإنسان أن يعفو بعض الشىء عن بذاءة مارتيال ، فهو يشترك فيها مع خلق عصره ، ولا يشك فى أن فتيات الأسر الراقية يسرهن أن يقرأنها فى عرائش قصورهن . « واستحت لكريشا وعلت وجهها حمرة الخجـــل وألقت بكتابى ، وكان بروتس حاضراً فابتعد عنها يا بروتس ؛ إنها ستقرؤه »(١٣٦) ذلك أن ما كان يطلقه هذا العصر للشعر من حرية مفرطة يسمح بكل ضروب البذاءة على شريطة أن تكون الأوزان والألفاظ صحيحة . بل إن مارتيال ليفخر بفجوره أحياناً فيقول فى أحد كتبه « لا تخلو صحيفة من صحفى من الفجور »(١٣٧) . لكنه فى أكثر الأحيان

يستحى قليلا من فجوره ، ويطلب إلينا أن نعتقد أن حياته أطهر من شعره .

ومل آخر الأمر ابتياع الطعام والشراب بالمديح والهجاء ، وتاقت نفسه الى حياة أهدأ من حياته السابقة وأطهر منها ، وحن إلى موطنه فى أسپانيا . وكان وقتئذ قد بلغ السابعة والخمسين من عمره ، وسرى الشيب فى شعر رأسه ، وأطال لحيته ، واتسمرت بشرته ، حتى ليستطيع أى إنسان — على حد قوله — بمجرد النظر إليه أن يدرك أنه ولد بالقرب من نهر التاجة Tagus . وأرسل طاقة شعرية إلى پلنى الأصغر فأرسل له هذا بدلا منها مبلغاً من المال يكفى نفقات سفره إلى بلبليس . ورحبت به تلك البلدة الصغيرة ، وعفت عن سوء أخلاقه بسبب ما نال من الشهرة . ووجد نصراء ومعينين لم يبلغوا من الثراء مبلغ من كانوا يناصرونه فى رومة ولكنهم كانوا أندى منهم يداً . وأهدت إليه سيدة رحيمة بيتاً ريفياً متواضعاً ذا حديقة قضى فيه ما كان باقياً له من سنين قليلة . وفى عام ١٠١ كتب پلنى يقول : « لقد سمعت توأ بموت مارتيال ، وقد أحزننى النبأ وأقض مضجعى ، فلقد كان مارتيال ذا فكاهة قوية لاذعة ، يمزج فى شعره الملح بالشهد ، وأظهر ما يمتاز به هو الصراحة »[١٣٨] . وإذا كان پلنى قد أحب هذا الرجل فلا بد أن كانت فيه فضيلة خافية على سائر الناس .